أراد بالكريم : نفسه. ومن هنا كان التجريد. يعنى : أنه مخلوق إما للغزو والغنم، أو للموت فى ميادين القتال.

وإلى هنا بان لك :

١- إن التجريد نوع من أنواع المبالغة فى الوصف.

٢- إنه يكون إما بوساطة حرف الجر : من - فى - الباء. وتدخل ثلاثتها على المنتزع منه إلا إذا كانت الباء للمعية فتدخل على المنتزع. وإما بوساطة الكناية. أو بمخاطبة المرء نفسه. وقد يكون بدون وساطة.

هذا . وفى التجريد خلاف بين العلماء . هل هو من مباحث البديع أو البيان إلا أنه بمباحث البديع أولى. ومن قال أنه من البيان قال مرة أنه تشبيه وأخرى أنه استعارة تصريحية. وثالثة أنه استعارة بالكناية.

* * *

١٠- مراعاة النظير

قال أبو عبادة البحترى يصف جماعة من الإبل أهزلها السير:

كالقسى المعطفات بل الأسهم مبرية بل الأوتار

يعنى ضمرت أجسامها حتى أصبحت كالقسى التى هى جمع قوس أو هى كالأسهم المبرية. بل هى مثل الأوتار.

فقد ذكر الشاعر فى هذا الوصف ثلاثة ألفاظ بينها تناسب وهى:

القسى - الأسهم - الأوتار. وإذا تأملت وجدت هذه الألفاظ الثلاثة ترتبط بعمل واحد هو الصيد أو القتال. وأنها - لذلك - تجمعها فى الشعور والذهن منطقة واحدة من حيث أنك إذا أمكن لك تصور واحد منها سهل عليك تصور البواقى.

ومثلها فى عصرنا الحديث : الطائرة - الدبابة - المدفع - الصاروخ وهكذا

فإن جمعت فى فقرة من كلامك شعراً أو نثراً بين هذه الأمور أو بعضها سمى البديعيون هذا الجمع (مراعاة النظير) وعرفوه فقالوا :

(هو أن يجمع فى الكلام بين أمرين أو أكثر بينهما تناسب لا بالتضاد) وقولهم لا بالتضاد قيد أخرج (الطباق) لأن الجمع فيه يكون به يعنى بالتضاد أو التناقض .

ومن أمثلة هذا الفن قوله تعالى : ﴿ **الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ** ﴾ حيث جمع بين الشمس والقمر وبينهما من التناسب ما لا يخفى عليك .

فى الآية الكريمة جمع بين أمرين متناسبين . وفى بيت البحترى جمع بين ثلاثة أمور متناسبة . أما جمع أربعة أمور فكقول بعضهم يمدح :

(أنت أيها الوزير إسماعيلى الوعد ، شعيبى التوفيق ، يوسف العفو محمدى الخلق) حيث جمع بين أربعة من الأنبياء : إسماعيل وشعيب ويوسف ومحمد عليهم السلام .

ومعنى : إسماعيلى الوعد . الصدق والوفاء إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ ...** ﴾ .

ومعنى : شعيبى التوفيق الحكمة إشارة إلى ما حدث من شعيب مع موسى عليهما السلام من العمل الذى قام به موسى عليه السلام فى نظير تزويجه من ابنة شعيب .

ومعنى : يوسفى العفو . عفو يوسف عليه السلام عن أخوته الذين ألقوه فى البئر . حيث قال لهم وقد ظفر بهم : ﴿ **لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ** ﴾ .

ومعنى : محمدى الخلق : اكتمال الخلق الحسن إشارة إلى وصف الله لنبيه محمد عليه السلام : ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ .

ولعلك قد لحظت أن الجمع بين هؤلاء الأنبياء الأربعة من مراعاة النظير ، كما أن الجمع بين ما ذكر فى صحبة كل رسول من مراعاة النظير كذلك . وهى صدق الوعد ، والتوفيق والعفو والخلق الفاضل .

وقال ابن رشيق :

أصح وأقوى ما سمعناه فى الندى مـــن الخبر المأثـــور منـــذ قديم

أحاديث ترويها السيول عن الحيا عن البحر عن كف الأمير تميم

فقد ناسب الشاعر بين الصحة والقوة ، والسماع والخبر المأثور، والأحاديث والرواية . وهذه من مصطلحات علم مصطلح الحديث .

وناسب – كذلك – بين السيول والحيا – يعنى : المطر – والبحر. وأتى فى البيت الثانى بالعنعنة وهى من مصطلحات علم الحديث .

ومن مراعاة النظير قول الشاعر :

كأن الثريا علقت فى جبينه وفى خده الشعرى وفى وجهه القمر

فقد ناسب الشاعر بين الثريا والشعرى والقمر، كما ناسب بين الجبين والخد والوجه .

والخلاصة : إنك إذا جامعت فى كلامك جمعاً متقارباً بين أمور أو أمرين لها ارتباط فيما بينها من حيث العمل وكان الخيال أسرع إلى تصور بعضها إذا ذكرت واحداً منها فذلك هو الفن المسمى بـ (مراعاة النظير) .

* * *

١١- الاستخدام

قال معاوية بن مالك الشاعر :

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

الشاعر يفخر بقومه ، وأنهم أهل سلطان وغلبة . إذا أرادوا شيئاً فليس فى قدرة أحد إعاقة إرادتهم فهم مسموعو الكلمة، نافذو الإرادة .

معنى البيت : يقول الشاعر إذا نزل السماء – يعنى المطر – بأرض أناس رعيناه – يعنى النبات الذى أنبته المطر. وإن كان أصحابه غضابا فذلك ليس مانعاً لنا .

أنت ترى أن الشاعر ذكر لفظاً هو (السماء) وأراد منه (الغيث) على طريق

المجاز المرسل الذى علاقته المجاورة. والقرينة لفظ (نزل) ثم أعاد عليه الضمير فى (رعيناه) مريداً منه معنى آخر هو (النبات) مجازاً مرسلاً علاقته السببية لأن الغيث سبب النبات. والقرينة لفظ (رعينا) لأن الرعى لا يقع على السماء بمعنى الغيث. وذلك ظاهر.

والخلاصة: أن الشاعر أراد بلفظ السماء معنى. ثم أعاد عليه الضمير مريداً عنه معنى آخر غير ماعناه بالاسم المظهر.

وقال أبو عبادة البحترى:

فسقى الغضا [1] والساكنيه وإن هم شبوه بين جوانح وضلوع

يدعو الشاعر لديار محبيه بالسقيا. فقوله: سقى: خبرى لفظاً، إنشائى معنى والغضا لفظ له معنيان. اسم لشجر، واسم مكان. وقد أرجع الشاعر على الغضا ضميرين أراد من أحدهما أحد معنيى اللفظ، وأراد من الآخر بيان ذلك: فقد ذكر الشاعر كلمة (الغضا) بمعنى الشجر. ثم أعاد عليه الضمير فى (الساكنيه) بمعنى المكان. واعاد عليه الضمير فى (شبوه) بمعنى الجمر الموقد منه وبعد هذا يمكنك فهم تعريف الاستخدام بشقيه وهو:

(أن يراد بلفظ له معنيان أحدهما ثم يراد بضميره المعنى الآخر [2]).

أو:

(يراد بأحد ضميريه أحد معنييه، ثم يراد بضميره الآخر معنى آخر [3]).

ومن الاستخدام على الطريقة الأولى قوله سبحانه:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢، ١٣].

---

(١) شجر من أشجار البوادى جمره بطئ الانطفاء. الواحدة منه: غضاة: والغضا أيضاً اسم مكان.

(٢) أعد نظرك على الشاهد الأول وشرحه: (إذا نزل السماء .....).

(٣) أعد نظرك على الشاهد الثانى وشرحه: (فسقى الغضا والساكنيه .....).

فقد ذكر لفظ (الإنسان) مراداً به آدم عليه السلام. ثم أعاد عليه الضمير مراداً منه معنى آخر هو (نسله) لأن لفظ الإنسان كما يطلق على آدم عليه السلام، يطلق على كل فرد من ذريته. أراد باللفظ أحد معنييه، وبضميره معناه الآخر وهذا أوجه الآراء فى هذا النص الحكيم [1].

ومثل الضمير اسم إشارة. كما فى قول الشاعر:

رأى العقيق فأجرى ذاك ناظره متيم لج فى الأشواق خاطره

أراد بالعقيق فى قوله (رأى العقيق) المكان الذى كان يقطن فيه أحباؤه ثم أعاد عليه اسم الإشارة: أجرى ذاك ناظره. بمعنى الدمع المشبه بالعقيق لحمرته. فهو استعارة تصريحية أصلية. والمعنى: لما رأى العقيق فاضت عيناه بدموع حمراء شوقاً وحباً.

فالعقيق له معنيان: المعدن المعروف ويكون أحمر اللون. واسم مكان. فأراد من اللفظ الصريح أحد معنييه، وهو اسم المكان، وأراد من اسم الإشارة معناه الآخر وهو العقيق الأحمر بعد أن شبه الدمع به ثم حذف المشبه على سبيل المجاز الاستعارى.

ومن هذا يبين لك أن المعنيين فى الاستخدام لا يلزم أن يكونا حقيقين بل يجوز أن يكونا مجازيين أو مختلفين بين الحقيقة والمجاز.

ومثل الضمير التمييز كقول الشاعر:

حكى الغزال طلعة ولفتة من ذا رآه مقبلاً ولا افتتن

أعذب خلق الله ريقاً وفماً إن لم يكن أحق بالحسن فمن ؟!

لأن لفظ (طلعة) يفيد أن المراد بالغزال (الشمس) وذكر كلمة (لفتة) يفيد أن المراد به (حبيبه) وهما – أعنى طلعة ولفتة – منصوبان على التمييز

---

(١) بعضهم يقول أن المراد بالإنسان – هنا – هو نسل آدم وليس آدم نفسه. وعليه فلا استخدام فى النص.

فجاء التمييز الأول (طلعة) من لفظ (الغزال) باعتبار (الشمس) وهو أحد معنى اللفظ المذكور. وجاء التمييز الثانى (لفتة) من لفظ الغزال باعتبار المعنى الثانى هو الحيوان المعروف بالرشاقة والاعتدال.

هذا .. ومما ينبغى عليك إدراكه أن الاستخدام إذا كان من النوع الثانى الذى سبق لك بيانه فيشترط أن يكون اللفظ المظهر مراداً به معنى مغاير لما يدل عليه ضميراه المذكوران بعده. مثل (الغضا) فقد أريد منه الشجر المعروف. وعاد عليه ضميره الأول فى (الساكنيه) بمعنى المكان. ثم عاد عليه ضميره الثانى فى (شبوه) بمعنى النار.

فأنت ترى معانى ثلاثة مستفادة من هذا التركيب، ولم يتواطأ فيه لفظان على معنى واحد. [1].

وغير خاف عليك – بعد – ما يفيده الاستخدام من توليد المعنى وإثرائه حيث أن اللفظ الواحد الأصل فيه أن يستخدم فى معنى واحد. ولكنك فى هذا الفن بعد أن تريد من اللفظ معناه تعيد عليه ضميره للدلالة على معنى آخر له باللفظ صلة. أو تعيد عليه ضميرين للدلالة على معنيين آخرين غير الذى دل عليه اللفظ نفسه ولذلك كانت تسمية هذا الفن (استخدام) وجيهة.

* * *

١٢- مواضع التألق فى الكلام

يستحسن البلاغيون والنقاد التألق والبراعة فى ثلاثة مواضع فى الكلام وينظرون إلى هذه المواضع نظرة خاصة، ويوصون بالاهتمام بشأنها والوفاء بحقها حتى تكون أعذب لفظاً، وأحسن سبكاً، وأصح معنى، وأعمق أثراً، وأبقى ذكراً.

---

(١) راجع حاشية الدسوقى (شروح التلخيص حـ٤ ص٣٢٧)

وتلك المواضع الثلاثة هى : الابتداء، التخلص، الانتهاء. ويعنون بالابتداء ما يصدر من المتكلم شاعراً أو ناثراً فى مفتتح كلامه. ويسمون الجيد منه حسن الابتداء، أو هم يشرعون للأديب ليكون ابتداؤه حسناً.

ويعنون بالتخلص الانتقال من معنى إلى معنى. لأن هذا من المزالق الخطرة وقليل من الأدباء من يحسن الربط بين فقر الكلام. وربما سماه البلاغيون حسن التخلص أو هم يشرعون للأديب أن يكون تخلصه حسناً.

ويعنون من الانتهاء آخر ما يصدر من المتكلم من قصة وضعها، أو خطبة ألقاها، أو مقالة نشرها، أو قصيدة أنشأها. وقد يسمون ذلك أيضاً حسن الانتهاء أو هم كذلك – يشرعون للأدباء أن يكون انتهاؤهم حسناً.

وأوجز لك الحديث عن هذه الفنون الثلاثة على الترتيب المذكور:

حسن الابتداء :

مطلع الكلام هو أول ما يقرع السمع ، أو هو الرائد الذى يتقدم الركب، والوجه المعبر عما يشيع من حسن ورقة يتمتع بها الهيكل العام، أو هو العنوان الذى يوحى بما حفل به الموضوع من معان وصور.

فإذا راق المطلع السامعين ووقع من أذواقهم موقعاً حسناً تلهفت النفوس لمعرفة ما يرد بعده من حديث، لأن المطلع الحسن مفتاح الشعور بوساطته يتجاوز المتكلم مخاطبة الأسماع. ويتسرب إلى الأحاسيس والوجدان فيخاطب النفوس بكل ما تملك من ملكات الوعى والإدراك. فإذا تتابع الكلام الحسن بعد المطلع الحسن انتقل المتكلم من مرحلة مخاطبة النفوس إلى مرحلة أسرها بما يمتعها من روائع المعانى وغرر الألفاظ متجاوباً مع خلجات النفس، وبواعث الإحساس. فيلتقى السامع والمتكلم فى لحظة فريدة من لحظات السمو والنبل فتتعانق روحاهما من خلال تموجات فى الأثير يصدرها لسان ينفث السحر، ويتلقاها قلب شديد الأسر.

فإذا أردت نماذج ذلك وصوره الناطقة فلا سبيل لك إلا القرآن الكريم فإن

مطالع سوره بلغت فى ذلك الغاية، وأربت عن النهاية. ليس لها فى كلام البشر مثيل. فما عليك إلا أن تولى وجهك شطره. فهو قبلتك فقف أمامه فى خشوع. واتل آياته فى تدبر وصفاء. ورو ظمأك من معينه السلسبيل تعش أبد الدهر ريان.

أما أدب البشر فقد استحسن النقاد نماذج لبعضهم مثل قول امرئ القيس الذى عدوه من أحسن الابتداءات:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وفى جودة هذا المطلع قالوا إنه جاء حسن السبك من حيث أن الشاعر وقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر الحبيب والمنزل فى شطر واحد من البيت. وقد خلا تركيب الكلام فيه من التعقيد والتنافر والركاكة. مع وضوح المعانى وعذوبة الألفاظ. وحسن الابتداء كامن فى هذا الشطر من البيت.

واستحسنوا كذلك قول النابغة الذبيانى:

كلينى لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطئ الكواكب.

وقد أشار بعض البلاغيين إلى تفضيل بيت النابغة هذا على بيت امرئ القيس السابق. ووجه المفاضلة أن الشطرين فى بيت النابغة فى درجة واحدة من الحسن: وضوح المعانى. وجودة السبك، وعذوبة الألفاظ أما بيت امرئ القيس فقد سلم له الشطر الأول وقد علمت ما فيه من حسن. أما الشطر الثانى فقد اشتمل على غرابة الألفاظ والفضول والتمحل [1].

ومما استحسن كذلك قول أشجع السلمى يمدح قصراً:

قصر عليه تحية وسلام خلعت عليه جمالها الأيام

وقد زاد فى بهاء هذا الكلام الشطر الثانى بما فيه من تخييل حسن أنيق.

---

(١) راجع إن شئت شروح التلخيص حـ٤ ص٥٣١.

وقد عاب النقاد قول ذى الرمة الذى أنشده أمام هشام بن عبد الملك إذ جاء فيه:

ما بال عينيك منها الماء ينسكب كأنه من كلى مفرية سرب (١)

جاء هذا البيت مطلع قصيدة أنشأها الشاعر فى مدح هشام فخانه التوفيق فى المطلع. ولذلك فإن هشاماً حين سمع هذا القول رد على الشاعر قائلاً: بل عينك أنت. لأنه تطير من هذا الكلام.

ويروى كذلك أن أحد البرامكة أنشأ داراً أنيقة ودعا الشعراء للتمدح فيها فكان مما قال أحدهم:

أربـــع البلى أن الخشـــوع لباد عليـــك وإنى لم أخنك ودادى

سلام على الدنيا إذا ما رحلتمو بنى برمك من رائحين وغاد

فوقع هذا القول من صاحب الدار والحاضرين موقعاً سيئاً وتطير منه الممدوح.

ولهذا يوصى البلاغيون والنقاد أن يكون قول القطامى فى مدح الديار:

أنا محيوك فأسلم أيها الطلل وإن بليت وإن طالت بك الطيل (٢)

أوصوا أن يكون هذا القول قدوة الشعراء فى الحديث عن الديار والتذكير بها.

ومن حسن الابتداء فن يسمونه براعة الاستهلال. وضابطه أن يقدم المتكلم فى صدر كلامه ما يوحى بموضوع الكلام وما سيرد فيه من قضايا ومعان. ومن أمثلتهم فى ذلك قول أبى محمد الخازن يهنئ ابن عباد بمولود:

بشرى ، فقد أنجز الأقبال ما وعدا وكوكب المجد فى أفق العلا صعدا

---

(١) كان هشام هذا مصاباً باحمرار حول عينيه .. كلى جمع كلية. ومفرية يعنى بقطعة. والمعنى: مال الماء يسيل من عينيك أحمر كالدم كأنه يتسرب من الكلى المفرية المقطعة.

(٢) الطلل ما بقى من آثار الديار. والطيل آماد الدهر.

ومن براعة الاستهلال قول أبى تمام يهنئ المعتصم بالله بفتح عمورية وكان المنجمون قد أفتوه بأن الفتح لا يتم فى الزمن الذى حدد له:

السيف أصـــدق أنبـاء مـــن الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفائح لاسـود الصحائف فى متونـهن جـلاء الشك والريب

فقد ابتدأ بقوله: السيف أصدق أنباء. وفى هذا دلالة على المقصود، لأن المقصود للشاعر أن يذكر كتب المنجمين حيث زعموا أن الفتح لن يتم فى الوقت الذى حدد له. وتم الفتح بقوة السيف. فبدأ الشاعر بما يشير إلى المقصود من أول الأمر.

وأذكرك بأن حسن الابتداء يجرى فى النثر كما يجرى فى الشعر وإن لم نمثل له نثراً. وإذا رجعت إلى كتب المؤلفين القدامى تجدهم قد صدروا مؤلفاتهم بما ينبئك عن موضوع الكتاب ومسائله. وأسوق لك مثلاً مما افتتح به القاضى الجرجانى كتابه الوساطة بين المتنبى وخصومه. فقد قال فى ذلك:

(التفاضل – أطال الله بقاءك – داعية التنافس، والتنافس سبب التحاسد. وأهل النقص رجلان: رجل أتاه التقصير من قبله، وقعد به عن الكمال اختياره. فهو يساهم الفضلاء بطبعه، ويحنو على الفضل بقدر سهمه. وآخر رأى النقض ممتزجاً بخلقته، ومؤثلا فى تركيب فطرته، فاستشعر اليأس من زواله، وقصرت به الهمة عن انتقاله، فلجأ إلى حسد الأفاضل، واستغاث بانتقاص الأماثل). هذا ما قدم به كتابه المذكور. فإذا كنت عالماً بموضوعات الكتاب أدركت لتوك أن ما ذكره فى هذه المقدمة لمحة مضيئة ذات دلالة واضحة على ما حفل به هذا الكتاب من قضايا ودراسات.

وجلال الدين السيوطى قدم كتابه: معترك الأقران فى إعجاز القرآن. فقال: (الحمد لله الذى جعل معجزات هذه الأمة عقلية، لفرط ذكائهم، وكمال أفهامهم وفضلهم على من تقدمهم، إذ معجزاتهم حسية لبلادتهم وقلة بصيرتهم. نحمده سبحانه على قوله لرسوله ﷺ: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ

﴿لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ وخصهم بالإعانة على التبليغ فلم يقدر أحد منهم على معارضته بعد تحديهم، وكانوا أفصح الفصحاء، وأبلغ البلغاء. وأمهلهم طول السنين فعجزوا ...).

فإذا علمت أن موضوع هذا الكتاب هو الحديث عن إعجاز القرآن. أدركت إلى أى مدى كانت تلك المقدمة منبئة عنه. وهادية إليه. فسر على هذا النهج فيما تقول. وما سوف تكتب. فإنه منهج رشيد.

حسن التخلص :

المقصود من حسن التخلص رعاية المناسبة بين مبادئ الكلام التى درج المتأديون على الابتداء بها كذكر أيام الشباب والغزل والفخر، وفضائل النفس ووصف الجمال، وبين المعنى المردوف الذى يلى مطالع القصيد.

فإذا انتقل الشاعر إلى المعنى المقصود مع وجود مناسبة بين المعنيين المنقول عنه والمنقول إليه كان تخلصه حسناً. ولا فإن الحسن عنه بمنأى وسمى ذلك الانتقال اقتضابا.

ومن التخلصات الحسنة قول أبى تمام :

يقول فى قومس قومى وقد أخذت (١)

منا السرى وخطا المهرية القود

أمطلع الشمس تبغى أن تؤم بنا

فقلت كلا ولكن مطلع الجود

يقول : أن قومه قالوا له وقد بلغ الموضع المسمى: قومس. وقد أتبعتهم الأسفار وأنهكهم السير الليلى وهزتهم خطى الإبل الجياد. قالوا له شاكين: أين

---

(١) قومس اسم موضع. والسرى السير ليلاً .. والمهرية نوع جيد من الإبل. والقود يعنى الطويلة الظهر.

تذهب بنا هل تقصد أن تصل إلى مطلع الشمس ؟ فقال : كلا، ولكن أقصد مطلع الجود. يعنى الممدوح.

فقد تخلص من ذكر مر الشكوى بالمناسبة الجوابية : فقلت كلا ولكن مطلع الجود.

ومثله فى حسن التخلص قول أبى الطيب يمدح المغيث العجلى :

مـرت بنا بين تربيـهـا فـقلت لهـا

من أين جـانس هـذا الشـادن العـربا

فـاستضـحكت ثم قـالت كـالمغيث يرى

ليث الشـرى وهو من عـجل إذا انتـسـبا

يقول أنه سأل الفتاة الرشيقة الشبيهة بالظبية كيف نسبها إلى العرب وهى من فصيلة الظباء. فضحكت وقالت أنا مثل المغيث – الممدوح هو ليث فى الشجاعة. فإذا نسبته إلى قومه وجدته عجلياً. يعنى أنها ظبية شكلاً وصورة وعينين وإنسية نسباً وجنساً، وكذلك المغيث ليث معنى وصورة وعجلى نسباً وجنساً.

يقول السعد أن هذا التخلص فى نهاية الحسن.

ولأبى الطيب قول آخر عدوه من حسن التخلص . والواقع أنه كذلك وهو قوله يفخر بشعره ويهجو غيره :

خليلى مـالى لا أرى غـيـر شـاعـر

فكم منهم الدعـوى ومنى القـصـائد

فـلا تعـجـبـا أن السـيـوف كـثـيـرة

ولكـن سـيـف الدولة اليـوم واحـد

فقد تخلص بذكر التشبيه. يعنى إن كثر مدعو الشعر وليس فيهم شاعر

سواى فما أكثر السيوف حين تحصيها. ولكن سيف الدولة واحد. أثبت أوحديته فى الشعر قياساً على أوحدية سيف الدولة فى الحكم.

ومن التخلصات الحسنة كذلك قول الشاعر:

إذا أخو الحسن أضحى فعله سمجاً
رأيت صورته من أقبح الصور
وهبه كالشمس فى حسن ألم ترنا
نميل عنها إذا مالت إلى الضرر

فإن استقباح الحسن غير مسلم. فتخلص الشاعر بما هو شبيه به ومسلم.

ومن حسن التخلص ما مر بك فى حسن التعليل وهو قول الشاعر:

أتتنى تؤنبنى فى البكا فأهلاً بها وبتأنيبها
تقول وفي قولها حشمة أتبكى بعين ترانى بها
فقلت إذا استحسنت غيركم أمرت الدموع بتأنيبها

أما الاقتضاب وهو الانتقال إلى غير المناسب. فقد مثلوا له بقول أبى تمام:

لو رأى الله أن فى الشيب خيراً جاورته الأبرار فى الخلد شيباً
كل يوم تبدى صروف الليالى خلقا من أبى سعيد غريباً

فقد انتقل الشاعر من ذم الشيب إلى مدح أبى سعيد ولا مناسبة بينهما وعلى هذا قس ما يشبهه.

حسن الانتهاء :

حسن الانتهاء قسيم حسن الابتداء فى الأهمية. فإذا كان طعم الابتداء طيباً وشهياً فى التذوق أغرى الشارب على احتساء كل ما فى الإناء وهو حامد وكشور وإلا لفظ ما وصل إلى فمه لتوه. محتالاً على إخراج ما تسرب إلى حلقه لما يشعر به من مرارة لاذعة، وطعم كريه وألقى الإناء غير عابئ به سلم أم انكسر!.

وكذلك إذا كان الانتهاء حسناً ترك أثراً حميداً فى النفوس يجعلها مشدودة إلى الشئ أسيرة هواه. لأنه – يعنى حسن الانتهاء – النكهة الطيبة التى تبقى من أثر التذوق فلا يزال الشارب حامداً شاكراً مترقباً إعادة الكرة ليشرب فى نهم ما طاب وأمتع.

وإلا فإن قبح الانتهاء لا يدعو إلى النفرة من الشئ فحسب وإنما ينسى كذلك – ما قد يكون قبله من لذة وحلاوة مذاق. ويغرس فى الطباع بذور الكراهة والاشمئزاز فتتجافى عنه النفوس. وتود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً.

لهذه الاعتبارات كلها ينظر النقاد إلى هذا الفن نظرة خاصة على أساسها مدحوا نصوصاً وعابوا أخرى. فمن الممدوح لهم قول أبى نواس يمدح:

وإنى جدير – إذ بلفتك – بالمنى وأنت بما أملت منك جدير

فإن تولنى منك الجميل فأهله وإلا فإنى عاذر وشكور

وحسن الانتهاء فى هذا القول فى جمع الشاعر بين العذر والشكر. وأثر هذا غير خاف عليك حسنه.

ومثله قول أبى تمام فى قصيدته التى قالها فى فتح عمورية. وقد رأيت أن ابتداءه لها كان حسناً:

إن كان بين صروف الدهر من رحم

موصولة أو ذمام غير مقتضب

فبين أيامك اللاتى نصرت بها

وبين أيام بدر أقرب النسب

أبقت بنى الأصفر الممراض كاسمهم (١)

صفر الوجوه . وجلت أوجه العرب

---

(١) بنو الأصفر: الروم. الممراض : المريض.

وحسن الانتهاء فيه الجمع بين اصفرار وجوه الأعداء. وإشراق وجوه العرب.

وقد مر بك أن أحسن الابتداءات ما دل على المقصود وسمى ذلك براعة الاستهلال. وكذلك قالوا: أن أحسن الانتهاءات ما دل على نهاية الكلام. وذكروا من أمثلة هذا قول المعرى أو المتنبى:

بقيت بقاء الدهر يا كهف أهله وهذا دعاء للبرية أجمع

ومثله:

فلاحطت لك الهيجاء سرجاً ولا ذاقت لك الدنيا فراقاً

ومثله قوله:

قد شرف الله أرضاً أنت ساكنها شرف الناس إذ سواك إنساناً

وإنما كانت هذه النصوص الثلاثة دالة على انتهاء الكلام مع حسنه. لأن مضمونها دعاء بأمهات الفضائل، أو مدح كذلك. فلا تبقى النفس بعد سماعه فى انتظار شئ جديد يقال.

وأدعوك فى الختام – كما دعوتك فى البدء – إلى الإقبال على كلام الله فى القرآن الكريم وتأمل فواتح سوره وخواتمها تجد الإعجاز البيانى فى أجلى صوره من حيث إشراقة المطلع وبهاء الختم مع استواء ما بين المطلع والختم معهما فى القوة والجمال.

ولولا خشية الاسترسال لذكرت لك منها ما أمتع وأقنع ولكن مكره أخاك لا بطل. وإن أملى فيك فى أن تخوض الغمار بنفسك جابر لى فى تقصيرى معك. وفقك الله وآتاك الحكمة. ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً.

* * *

المحسنات اللفظية

١- الجناس

قال ابن الرومى :

للســـود فى الســـود آثار تركن بهـــا

وقـــعـــاً من البـــيض يثنى أعين البـــيض

فى هذا البيت تلاحظ كلمتين تكررت كل منهما فى البيت مرتين. أولاهما كلمة (السود) التى تكررت فى الشطر الأول من البيت. وثانيتهما كلمة (البيض) التى تكررت فى الشطر الثانى منه.

ومع هذا التكرار الواضح فإن المعنى مختلف. فكل من الكلمات الأربع تدل على معنى مباين لما دلت عليه الأخرى.

فالسود فى قوله (للسود) معناها الليالى. أما السود الأخرى فى قوله: (فى السود) المقصود منها: الشعر الأسود. والمعنى لهذا الشطر: لليالى السود بما تجتلب من هموم آثار واضحة فى شعر المهموم الذى يمضى ليله ساهراً قلقاً.

أما كلمة (البيض) الأولى فى الشطر الثانى من البيت فمعناها: الشعيرات البيضاء كما أن المراد من كلمة البيض الأخرى هو الغانيات الفاتنات صويحبات البشرة البيضاء.

ومعنى البيت: أن لهموم الليالى السوداء آثاراً صارخة فى الشعر الأسود الذى يحمله رأس المهموم ولحيته، حيث تنتشر فيه الشعيرات البيضاء. فإذا رأته الغانيات البيض صددن عنه ظناً منهن أن شعره قد شاب لكبر فى سنه. وهن إذا شاب شعر المرء أو قل ماله فليس له فى حبهن نصيب.

هكذا اتحدت كل كلمة مع ما تكرر معها فى اللفظ. للسود فى السود –

وقعاً من البيض – أعين البيض. لكن المعنى مختلف. فليس اتحادهما فى اللفظ يتبعه اتحاد فى المعنى كما عرفت.

ألفاظ متحدة فى الصورة . ومعانيها مختلفة . هذه حقيقة أرجو أن تكون مدركاً لها حريصاً عليها فى هذا الفن بالذات. وهانحن الآن نقترب من وضع حد للفن البديعى المسمى (جناس) فما هو إذن ؟ وقبل ذكر التعريف أذكرك بأن الجناس لابد فيه من طرفين مثل السود وللسود والبيض والبيض فى بيت ابن الرومى المذكور. وعلى هذا فإن ضابط الجناس هو:

(اتحاد طرفيه أو تشابههما فى الصورة والتلفظ مع اختلاف المعنى فيهما)

وقد عرفه ابن الأثير بقوله: (هو اتفاق اللفظ واختلاف المعنى. كما ذهب إلى ذلك الخطيب فى الإيضاح[1]).

وهذان نموذجان من تعريفات القدماء للجناس، وسيتضح لك بعد الوقوف على الجناس وصوره أن هذه التعريفات بمنأى عن الوفاء بحقه، لأنه فن واسع الأفق كثير التعاريج. لم يعهد فى فن من فنون (البديع) إن اتسعت مسائله واختلفت صوره كما حدث فيه. ولذلك ترى بعض الكاتبين يفرون من وضع حد جامع له، ويكتفون بضوابطه الفرعية الخاصة بكل نوع من أنواعه.

أقسام الجناس :

للبديعيين تقسيمات وتفريعات كثيرة للجناس. وأساس هذا التقسيم والتفريع هو اللفظ أما المعنى فلا مدخل له فيها، لأنه مختلف فى كل صورة من صور الجناس. وعلى هذا الأساس تعال نمضى سوياً.

---

(١) لم التزم صيغة التعريف المنصوص عليها فى كتب البلاغة إذ أن البلاغيين لم يتفقوا على تعريف معين بل تعددت تعريفاته له مع ما فيها من قصور. فآثرت هذا الضبط عله يكون أتم وأشمل.

(٢) انظر المثل السائر حـ٣ (١٩٨) تحقيق الدكتورين الحوفى وطبالة والإيضاح حـ٢ ص٣٨٢ .

١ - الجناس التام :

الجناس التام هو ما كان طرفاه متفقين فى أربعة أمور :

(أ) نوع الحروف بأن تكون الكلمتان مكونتين من حروف متحدة مثل للسود فى السود المتقدم.

(ب) عدد الحروف بأن تكون الكلمتان مكونتين من حروف متساوية من حيث العدد بعد الاتفاق فى الجنس. ولا يعتد بأل التعريفية لأنها طارئة على الكلمة.

(جـ) هيئة الحروف. بأن تكون الحروف المتجانسة المتساوية فى العدد متحدة الضبط فى الكلمتين. الرفع يقابله رفع والنصب نصب وهكذا فى كل حروفها. لا يعتد بحركة الحرف الأخير لأنه خاضع لعوامل الإعراب.

(د) ترتيب الحروف . بأن تكون الحروف المتجانسة المتساوية العدد المتحدة الضبط متحدة الموضع. الأول يقابله الأول. والثانى الثانى والثالث الثالث وهكذا.

وكل هذه الشروط موجودة فى بيت ابن الرومى السابق. فهو من الجناس التام.

وعلى هذا فكل جناس اتحد طرفاه فى الأمور الأربعة فهو جناس تام. وقد قسمه البديعيون إلى أربعة أنواع إليك ضوابطها والتمثيل لها:

١ - التام المماثل : وهو ما اتفق طرفاه فى الاسمية، أو الفعلية، أو الحرفية. بأن يكونا اسمين، أو فعلين، أو حرفين.

ومن أمثلة الجناس الاسمى قول بعضهم: (زائر السلطان كزائر الليث الزائر [١]).

---

(١) زائر الأولى والثانية اسم فاعل من زار يزور. وزائر الثالثة اسم فاعل من زأر يزأر والزئير صوت الأسد. اتحد اللفظان فى الصورة، واختلف معناهما.

ومنه قول الأفوه الأودى :

وأقطع الهوجل مستأنساً بهوجل عيرانه عنتريس

الجناس بين هوجل وهوجل. الأولى بمعنى الطريق البعيد، والثانية بمعنى الفرس. وقد تقدم لك فى فن الطباق هذا الشاهد على رأى قدامة.

ومنه قول المتنبى :

لك يا منازل فى القلوب منازل أقفرت أنت وهن منك أواهل

خاطب الشاعر منازل أحبائه الدارسة قائلاً لها أن فى قلبه منزلة وذكرى لا تزول، وإن أقفرت تلك المنازل من ساكنيها وعفا عليها الدهر. والجناس بين منازل ومنازل. الأولى بمعنى مكان السكنى، والثانية بمعنى المكانة والذكرى.

ومنه قول الشاعر يرثى صديقاً له اسمه اللواتى :

أعينى أين أدمعك اللواتى جرين دما غداة قضى اللواتى (١)

الجناس بين اللواتى واللواتى. الأولى بمعنى الدموع. والثانية اسم شخص.

وقول أبى تمام :

إذا الخيل جابت قسطل الحرب صدعوا

صدور العوالى فى صدور الكتائب (٢)

الجناس بين صدور العوالى بمعنى أطراف الرماح، وصدور الكتائب بمعنى نحور جنود كتائب الأعداء.

ومن الجناس التام المماثل قوله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾.

---

(١) انظر فن الجناس لعلى الجندى ص ٦٦ .

(٢) جابت قطعت واخترقت. قسطل الحرب: غباره. والمعنى إذا دارت المعارك فإن الأبطال الممدوحين يحطمون أطراف الرماح فى صدور الأعداء راجع الإيضاح حـ٢ ص٣٨٣ .

الجناس بين الساعة وساعة. الأولى بمعنى يوم القيامة. والثانية بمعنى اللحظة القصيرة من الزمن [١].

* ومن أمثلة الجناس الفعلى :

يا اخوتى منذ بانت النجب وجب الفؤاد وكان لا يجب [٢]

فارقتكم وبقيت بعدكم ... ما هكذا كان الذى يجب [٣]

الجناس بين يجب ويجب. الأولى بمعنى يضطرب ويتحرك. والثانية بمعنى يلزم وقال أحد الشعراء يذم من يتعاطى قول الشعر، وليس هو بشاعر: [٤].

والمعدمون من الإبداع قد كثروا

وهم قليلون أن عدوا وإن حصروا

قوم لو أنهم ارتاضوا لما قرضوا

أو أنهم شعروا بالنقص ما شعروا

الجناس بين شعروا وشعروا. الأولى بمعنى: أحسوا. والثانية بمعنى لم يقولوا الشعر. يعنى : لو أن هؤلاء علموا بنقصهم لما جرؤ واحد منهم على أن يقول شعراً فهذا جناس من نوع واحد. جناس فعلى كسابقه والجنايس التام الفعلى أمثلته نادرة. وليس فى القرآن الكريم مثال واحد منه. وإنما جاء فيه الجناس التام الاسمى كما مر بك فى آية واحدة وذكر السيوطى فى الإتقان أن شيخ الإسلام ابن حجر استنبط موضعاً آخر منه فى القرآن الكريم هو قوله تعالى: ﴿**يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ * يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ**﴾[٥].

---

(١) خالف فى ذلك ابن أبى الحديد. انظر رأيه – إن شئت – فى الفلك الدائر.

(٢) من (الوجب) وهو المعركة الشديدة.

حـ٤ من كتاب المثل السائر لابن الأثير تحقيق د – الحوفى – د – طبانة.

(٣) من (الوجوب) وهو اللزوم.

(٤) انظر فن الجناس لعلى الجندى ص٦٧ .

(٥) راجع الإتقان للسيوطى (حـ٢ ص٩١).

الأبصار الأولى بمعنى البصر، والثانية بمعنى العقول. وعلى هذا فالجناس بينهما تام مماثل.

أما التام المماثل الحرفى فلا يكاد يوجد. وكان من السهل صرف الفكر عنه وإنما ذكرته لك – هنا – لتكون على بينة منه وجوداً أو عدماً.

وقد مثل مجيزوه بقولهم :

(قد يجود الكريم ، وقد يبخل الجواد) وقالوا : الجناس بين قد وقد. الأولى مفيدة للتكثير، والثانية مفيدة للتقليل. فهما مختلفتا المعنى مع اتحاد اللفظ[1].

كما مثلوا له بقولهم : (ما منهم من قائم) منهم الأولى بينية، والثانية زائدة.؟!

وإذا كان هذا منهجهم فى التمثيل للجناس الحرفى فأحرى أن يمثل له بقول الشاعر:

قهرناكم حتى الكماة فأنتم تهابوننا حتى بنينا الأصاغرا

فإن حتى وحتى مع اتحاد لفظيهما مختلفتان فى المعنى من حيث مدخولهما. فالأولى تفيد التعظيم، والثانية تفيد التحقير. وهذا شاهد مأثور فهو أولى من المصنوع.

وقد ظهر لك أن الجناس التام المماثل هو ما كان طرفاه اسمين أو فعلين ولا ضرورة لإقحام الحرفى فقد علمت أنه ناضب المورد ملح المذاق [2].

٢ – الجناس التام المستوفى [3]. وهو النوع الثانى من الجناس وضابط هذا النوع هو أن يكون طرفاه مختلفين: اسم وفعل، أو اسم وحرف، أو فعل وحرف.

---

(١) انظر حاشية الدسوقى : شروح التلخيص حـ٤ ص٤١٦ .

(٢) الجناس التام المماثل قليل الورود – عموماً – بكثرة القيود المعتبرة فيه.

(٣) اسم مفعول من استوفى.

وهذا النوع أكثر وروداً من الجناس التام المماثل لتسامحهم فى بعض القيود التى اعتبروها فى المماثل ولذلك كثرت أمثلته فى كلام الأدباء. ومنه قول المعرى:

لو زارنا طيف ذات الخال أحيانا ونحن فى حفر الأحداث أحيانا

الجناس بين أحياناً وأحياناً. الأولى اسم وهى جمع حين. والثانية فعل. والمعنى: لو أن المحبوب زارنا ونحن أموات لبعث فينا الروح من جديد بزيارته.

ومثله:

وسميته يحيى ليحيا فلم يكن إلى رد أمر الله فيه سبيل

والمعنى أن الشاعر سمى وليده يحيى تفاؤلاً لكى يعيش. ولكن أجله المحتوم بادره ولم تجد التسمية.

والجناس كما هو واضح بين يحيى ويحيا. الأولى اسم والثانية فعل.

ومثله قول أبى تمام يمدح يحيى بن عبد الله البرمكى [1]:

ما مات من كرم الزمان فإنه يحيا لدى يحيى بن عبد الله

يحيا الأولى فعل، والثانية اسم. وهذا يختلف عن سابقيه من حيث تقدم الفعل فيه على الاسم، أما السابق فالاسم فيه مقدم على الفعل.

ومثله قول أبى الفتح البستى [2]:

قيل للقلب ما دهاك أجبنى قال لى بائع الفرانى فرانى

ناظراه فيما جنى ناظراه .. أو دعانى أمت بما أودعانى

فى النص ثلاثة مواطن للجناس الأولى بين الفرانى وفرانى وهو من الجناس التام المستوفى لأن الأولى اسم والثانية فعل، والثانى بين ناظراه وناظراه. وهو من الجناس التام المستوفى لاختلاف طرفيه بين الفعلية والاسمية. وهو محل الشاهد

---

(١) راجع فن الجناس لعلى الجندى ص٧١.

(٢) أنظر أسرار البلاغة (ص٤) شرح رشيد رضا.

لأن ناظراه الأولى فعل أمر مسند إلى ألف الأثنين. ومعناه: جادلاه وسائلاه وناظراه الثانية اسم بمعنى (عيناه) يعنى أنه سحره بنظراته الآسرة.

أما موطن الجناس الثالث فهو بين دعانى وأودعانى وسيأتى نوع هذا الجناس قريباً [1]. و المعنى: جادلاه وسائلاه فيما فعلت فى عيناه فإن لم تفعلا ذلك فاتركانى أمت بما أودعت فى عيناه.

وفى بعض الروايات البيت هكذا:

عارضاه فيما جنى عارضاه أو دعانى أمت بما أودعانى

ولا اختلاف فى المعنى ولا فى التوجيه وأن اختلف اللفظ فيهما.

ومثال مقابلة الاسم بالحرف – مع ندرة هذا النوع – ما روى عن النبى عليه السلام (إنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله – تعالى – إلا أجرت بها حتى ما تجعل فى فى أمرأتك).

فى الأولى حرف جر. والثانية اسم بمعنى الفم.

ومثاله فى مقابلة الفعل بالحرف ما ذكروه من قولهم: علا زيد على جميع أهله [2]. يعنى علت منزلته عليهم.

ولا يخفى عليك بعد أن الجناس التام المستوفى إنما هو فيما وقع بين الاسم والفعل أو الفعل والاسم. وعلى هذا نص ابن السبكى [3] ملغيا من الحساب كل جناس كان الحرف طرفاً فيه. وقد وقفت أنت على حقيقة ذلك. إذ المعول عليه فى هذه الفنون هو ما كان طريقه معروفاً عند الأدباء قد كثر سيرهم فيه، أو قل مع

---

(١) كلمة أو دعانى الأولى مركبة من حرف (أو) العاطفة. وفعل أمر (دعانى) بمعنى أتركانى أما كلمة (أو دعانى) الثانية فهى فعل ماضى الذى هو (أودع) والألف فيه ضمير الاثنين فاعل. والنون للوقاية، والياء ضمير المتكلم مفعول به فالكلمتان متفقتان رسماً ونطقاً مختلفتان معنى وتركيباً.

(٢) فن الجناس (٢٧٤) على الجندى.

(٣) انظر عروس الأفراح (حـ٤ ص٤٧) شروح التلخيص.

ملاحته. وكل ما ذكر للجناس الحرفي سوى الحديث المذكور فإنه يحمل بين طياته أسباب رده.

٣- الجناس التام المركب : وضابطه أن يكون مكوناً من طرفين أحدهما مركباً أما من كلمتين مستقلتين، أو كلمة وجزء كلمة، أو جزئى كلمتين أما الطرف الآخر فيكون مفرداً (١).

ومما هو مشهور فى ذلك قول أبى الفتح البستى :

إذا ملك لم يكن ذاهبة فدعه فدولته ذاهبة

الجناس بين ذاهبة وذاهبة، والطرف الأول مكون من كلمتين: ذا بمعنى صاحب وهبة بمعنى منحة. والطرف الثانى هو كلمة واحدة، ذاهبة، اسم فاعل مؤنث.

وهذا النوع ضربان :

(أ) ملفوف وهو ما يتركب أحد ركنيه من كلمتين تامتين كقول الشاعر:

ناظراه فيما جنى ناظراه أو دعانى أمت بما أودعانى

وقد سبق لك شرح النص وتحليله فارجع إليه. ومثله قول الشاعر:

أسرع وسر طالب المعالى بكل واد وكل مهمه(٢)

وأن لحا عاذل جهول فقل له يا عذول مه مه

فالطرف الثانى (مه مه) مكون من كلمتين تامتين كما ترى ..

ب - مرفوف وهو ما كان طرفه المركب مكوناً من كلمة وبعض أخرى ومنه قول الحريرى:

ولا تله عن تذكار ذنبك وابكه

بدمع يحاكى الوبل حال مصابه

---

(١) يعنى كلمة واحدة.

(٢) المهمه : المكان القذر. ولحا: لام. ومه مه. اسم فعل أمر بمعنى اسكت اسكت.

ومثل لعينيك الحمام ووقعه

وروعة ملقاه ومطعم صابه [1]

فالركن الثانى مركب من (ميم) مطعم. ومن كلمة (صابه) التى بعدها ولا عبرة بهاء ضمير الغائب المضاف إليه فى الموضعين لأن الجناس متحقق مع زوالهما فلا تظن أن الطرف الأول مركب من كلمتين والثانى من كلمتين وبعض أخرى . .

والجناس التام المركب ينقسم إلى قسمين آخرين. لأنه إن تشابه طرفاه خطاً ولفظاً سموه:

متشابهاً : ومن أمثلته قول شمس الدين بن عبد الوهاب:

طار قلبى يوم ساروا فرقا وسواء فاض دمعى أورقا

حار فى سقمى من بعدهم كل من فى الحى داوى أورقا

بعدهم لا طل وادى المنحنى وكذا بأن الحمى لا أورقا

فقد وقع فى هذا النص ثلاثة ألفاظ بينها تجانس. وهى: أورقا – أورقا – أورقا. الأولى بمعنى: أو سكن. والثانية بمعنى: أو قرأ رقية. والثالثة بمعنى: اظهر ورقه.

ومعنى النص: طار قلبى يوم تفرق أحبابى وظعنوا ولم يجد هطول دمعى فبكائى وعدم بكائى سواء وقد تحير الناس فى سبب أسقامى فهرعوا إلى علاجى بعضهم طلب شفائى بإعطائى الأدوية. وآخرون كانوا يرقوننى بالتلاوة والأبخرة وقد أقفر الوادى بعد رحيلهم ولم يعد له معنى عندى. فهم كانوا كل شئ فيه. كانوا ريه وزينته وبهجته. وبعدهم صار أجرد قاحلا.

ولا يخفى عليك أن هذا المثال من التام المركب الملفوف المتشابه. فهو تام

---

(١) المعنى: تذكر ذنوبك وتندم على فعلها وانتحب خوفاً على عقابها واجعل الموت دائماً بين ناظريك وخوف نفسك لقاءه وطعمه المر.

لتوافر شروط التمام فيه من حيث عدد الحروف وجنسها وترتيبها وهيئاتها. ومركب لأن أحد طرفي الجناس ليس مفرداً وملفوف لأن طرفه المركب مكون من كلمتين تامتين. ومتشابه لأنه قد تشابه فى اللفظ والخط.

ومنه قول الآخر :

عضنا الدهر بنابه ليت ما حل بنابه (١)

وإذا اختلف الطرفان خطا مع تشابههما لفظا سمى :

مفروقا : ومن أمثلته قول الشاعر :

لا تعرضن على الرواة قصيدة ما لم تكن بالغت فى تهذيبها

فإذا عرضت الشعر غير مهذب عدوه منك وساوساً تهذى بها

الجناس بين : تهذيبها، وتهدى بها. وهما متشابهتان لفظاً مختلفتان خطاً كما ترى.

٤ - **الجناس التام الملفق** : وهو النوع الأخير من الجناس التام وضابطه أن يكو طرفاه مركبين من كلمتين أو كلمة وبعض أخرى. والفرق بينه وبين الجناس المركب أن المركب حصل التركيب فيه فى ركن واحد، وهذا التركيب فيه فى الركنين معاً. وهو ضربان.

(أ) ملفق موافق : وهو ما توافق طرفاه خطاً مثل قول الشاعر:

وليت الحكم خمساً بعد خمس لعمرى والصبا فى العنفوان

فلم تضع الأعادى قد رشانى ولا قالوا فلان قد رشانى

الجناس بين : قد رشانى وقد رشانى. وكل من الطرفين مركب من كلمتين الأول مركب من: قدر - شانى. بمعنى منزلتى. فهو مركب من اسمين والثانى

---

(١) بنا به الأولى كلمة واحدة يعنى: ضرسه. وبنا به الثانية كلمتان الأولى بنا - والثانية به - يعنى ليت ما نزل بنا نحن نزل به هو.

مركب من: قد – رشانى بمعنى دفع لى رشوة. فهو مركب من حرف (قد) وفعل: رشانى. وهكذا.

ب – ملفق مفارق : وهو ما اختلف طرفاه خطأً كقول الشاعر:

خبروها بأنه ما تصدى لسلو عنها ولو مات صدا

الطرف الأول مركب من (ما) وهو حرف نفى ومن: تصدى: بمعنى تعرض وهو فعل.

والثانى مركب من (مات) وهو فعل. و (صدا) وهو اسم.

والمعنى : أعلموها أنى باق على حبها ولم أتطلع إلى سواها ولو مت من هجرها لى.

ومنه كذلك قول البستى :

إلى حتفى سعى قدمى أرى قدمى أراق دمى

الجناس فى الشطر الثانى من البيت طرفه الأول مركب من فعل واسم، ومثله الثانى. ولعلك لحظت أن الطرفين فيه قد اتفقا لفظاً مع اختلافهما خطأً وهذا الجناس أجمل من سابقه لاتفاقه فى اللفظ وليس ذلك بشرط فيه بدليل اشتراك السابق معه فى التسمية.

وبهذا ينتهى الحديث عن الجناس التام بأقسامه الأربعة التى هى :

١– الجناس التام المماثل.

٢– الجناس التام المستوفى.

٣– الجناس التام المركب.

٤– الجناس التام الملفق . . وقد بان ما بينهما من فروق فكن على ذكر منها.

٢– الجناس المحرف :

سبق لك أن الجناس التام مشروط فيه أربعة شروط وهى:

تجانس حروف طرفيه، وتساويهما فى العدد، واتفاقها فى الترتيب، واتفاقها فى الضبط. فإذا تخلف شرط من هذه الشروط خرجنا من الجناس التام إلى أنواع أخرى من الجناس تختلف أسماؤها باختلاف الشرط المتخلف وعلى هذا النهج نمضى مع الجناس. فما هو إذن تعريف الجناس المحرف؟

هو : كل جناس اختلف فيه الطرفان من حيث ضبط حروفهما حركات وسكنات.

فالشرط المتخلف – هنا – هو الاتفاق فى الضبط. وعلى هذا يمكن تصور الجناس المحرف فى يسر بأنه: ما اختلف ضبط الحروف فيه. ومع هذا يبقى الجناس المحرف محتفظاً بتساوى عدد الحروف واتفاق ترتيبهما وتجانسهما فى الطرفين. ومن أمثلته قول أبى تمام:

هن الحمام فإن كسرت عيافة من حائهن فإنهن حمام (١)

الجناس بين : الحمام بفتح الحاء، وحمام بكسرها. فالاختلاف – هنا – فى هيئة الحركة فتح فكسر.

ومثله قول الآخر :

كيف لا أبغض الصباح وفيه بان عنى ذوو الوجوه الصباح

الجناس بين الصباح بفتح الصاد المشدد، والصباح بكسر الصاد المشدد. الأولى بمعنى وقت الصباح والثانية بمعنى الوجوه المشرقة المضيئة التى مفردها: صبيح. وبان عنى: يعنى رحل وظعن. والاختلاف – هنا – فى هيئة الحركة – كذلك – فتح فكسر.

ومن الجناس المحرف قول المعرى :

والحسن يظهر فى شيئين رونقة بيت من الشعر أو بيت من الشعر

الجناس بين الشعر بمعنى الكلام المنظوم. وبين الشعر والمراد به ما علا الرأس.

---

(١) الحمام : الطير المعروف جمع حمامة. وحمام : بكسر الحاء الموت.

والأولى بسكون العين. والثانية بفتح العين. فالاختلاف – هنا – بين سكون وحركة. وليس بين حركة وحركة. ومثله قولهم: (البدعة شرك الشرك) بفتح الراء فى الأولى. وسكونها فى الثانية. والمعنى مختلف كما تعلم.

٣– أن يكون الاختلاف بالتشديد والتخفيف. وذلك كقول الشاعر:

أمسى يحدثنى فقلت لصاحبى أمحدث أم محدث من فيه

الجناس بين محدث بالتشديد بمعنى متكلم، ومحدث بتخفيف الدال المكسورة بمعنى أحدث.

ومما ذكر فى ذلك قول السكاكى: (الجاهل إما مفرط أو مفرط) فالتشديد والتخفيف من قبيل اختلاف الضبط ولا يفهم منه الزيادة والنقص فى الحروف باعتبار أن الحرف المشدد حرفان والمخفف حرف واحد فيكون الجناس ناقصاً – كما سيأتى – وليس محرفاً. لأن الحرف المشدد فى حكم الحرف الواحد (١).

والخلاصة: الجناس المحرف منظور فيه إلى ضبط الحروف فى الطرفين. فتارة تختلف حركة حرف فى طرف مع حركة حرف مناظر فى الطرف الآخر، مثل حمام وحمام. والصباح والصباح وتارة يكون الاختلاف ناشئاً عن حركة وسكون مثل شرك الشرك. وثالثة يكون الاختلاف بالتشديد والتخفيف. فيكون الحرف مخففاً فى طرف ومشدداً فى طرف آخر.

ولا تنسين أن حركة الأطراف لا اعتبار لها لخضوعها لعوامل الإعراب. فإذا كان طرفا الجناس ثلاثيين فالمعتبر حركة الحرفين الأوليين دونما نظر لحركة الحرف الثالث وهكذا فيما زاد على الثلاثة.

٣ – الجناس الناقص:

الجناس الناقص هو ما اجتمعت فيه ثلاثة شروط هى: تجانس الحروف، واتفاق الضبط، واتفاق الترتيب.

---

(١) راجع – إن شئت – شروح التلخيص حـ٤ ص٤٢٠ والمفتاح ص٢٢٧.

وتخلف فيه شرط واحد هو: تساوى الحروف فى العدد فى الطرفين. وعلى هذا فالجناس الناقص هو ما نقص أحد طرفيه عن الآخر فى عدد الحروف.

ولهذا النوع من الجناس أحوال وأضرب متعددة أو جزها فى الآتى:

١- أن يقع الاختلاف بين الطرفين بحرف واحد بأن يكون فى أول الطرف الزائد. مثل قول الشاعر:

وكم سبقت منه إلى عوارف ... ثنائى إلى تلك العوارف وارف

وكم غرر من بره ولطائف ... لشكرى على تلك اللطائف طائف (١)

العوارف: المعروف. ووارف ممتد. والغرر الصنائع الجميلة. والمعنى له على فضائل سابغة استحقت منى كل شكر وثناء.

والجناس بين عوارف - وارف. وبين: لطائف طائف. وقد وقع الحرف الزائد فى أول الطرف الذى به الزيادة. العين فى عوارف. واللام فى لطائف..

وقد يكون الحرف الزائد فى وسط الطرف المزيد كقول الشاعر:

كفانا إليكم حدنا وحديدنا ... وكف متى ما تطلب الوتر تنقم

الجناس بين حدنا - حديدنا. وحرف الزيادة هو الياء الواقع بين المثلين والمعتبر فى الطرفين هنا حد - حديد. ولا تأثير للضمير المضافين إليه.

وقد تكون الزيادة فى آخر الطرف المزيد كقول كعب بن زهير الشاعر المعروف:

ولقد علمت وأنت خير عليمة ... ألا يقربنى الهوى لهوان

الجناس بين هوى - هوان.

ومنه قول البهاء زهير الشاعر المصرى:

أشكو وأشكر فعله ... فاعجب لشاك من شاكر

---

(١) انظر أسرار البلاغة ص١٢.

طرفى وطرف النجم فيك كلاهما ساه وساهر

الجناس المراد – هنا – شاك – شاكر، وساه ساهر. فالزيادة فى هذه الأمثلة فى آخر الطرف المزيد. ولكل من هذه الأضرب تسميات مختلفة رأيت ألا أثقل بها عليك.

٢– أن تقع الزيادة بأكثر من حرف إما فى الأول مثل قولك:

(ضع بصرك موضع سجودك) والجناس بين: ضع – موضع. وكقول الشاعر:

فلى طبع كسلسال معين زلال من ذرى الأحجار جارى

والجناس بين: أحجار – وجار. وهذا النوع يسمى متوجاً.

أو تقع الزيادة فى الوسط. ومنه: (بناء المساجد مجد خالد) [1] ويسمى هذا النوع الزائد.

وقد تقع الزيادة فى الآخر، وهو كثير. ويسميه بعضهم. (المتمم) اسم مفعول ومنهم من يسميه المذيل.

ومنه قول الشاعر حسان بن ثابت الأنصارى:

وكنا إذا يغزو النبى قيولة نصل جانبيه بالقنا والقنابل

الجناس بين: القنا – القنابل. فالزيادة فى الطرف كما ترى.

ومثله قول الخنساء:

إن البكاء هو الشفاء من الجوى بين الجوانح

جانست بين الجوى والجوانح. ومثله قول آخر يرثى ميتاً:

---

(١) انظر فن الجناس لعلى الجندى ص٩٧. تجد أمثلة أخرى مصنوعة.

فـيـا لك من حـزم وعـزم طواهمـا
جـديد الردى تحت الصـفـا والصـفـائح

جانس بين الصفا والصفائح. ومن المشهور المتعارف فى ذلك قول أبى تمام يمدح:

يمدون من أيد عـواص عـواصم
تصـول بأسـيـاف قـواض قـواضب

جانس بين عواص عواصم .. وبين قواض وقواضب. ولهذا النص والذى قبله خلابة لا يخفى أثرها. حيث يخيل إليك فيهما أن الكلمة قد تكررت ولا يلبث أن يزول هذا التخيل عندما تأتى الكلمة التى حسبتها مكررة لما قبلها. كلمة أخرى مغايرة لها .. تدرك هذا مع الصفا والصفائح إذ لا فرق بين الاثنين إلا بما زيد فى الثانية من الهمزة والحاء.

وكذلك عواص وعواصم . وقواض وقواضب . فبين كل متجانسين فيهما ائتلاف واختلاف. وذلك سر الروعة والخلابة فيه.

والخلاصة : إن الجناس الناقص منظور فيه إلى عدد الحروف فى الطرفين. أحدهما أكثر من الآخر حروفاً ولا اختلاف بينهما إلا فى الزيادة والنقص فى عدد الحروف مع بقاء الشروط الأخرى – غالباً – ولو فرض أن أزيل الحرف الزائد لصار الجناس تاماً مماثلاً.

وهذه الزيادة إما أن تكون بحرف واحد فى الأول أو الوسط أو الآخر. وإما أن تكون بأكثر من حرف. وهى كذلك إما فى الأول أو الوسط أو فى الآخر وقد مرت بك أمثلة كل هذه الأحوال.

٤- الجناس المقلوب :

وضابط هذا الجناس هو أن يخالف طرفاه فى ترتيب حروفهما ويبقى

محتفظاً بمقومات الجناس الأخرى التى هى اتفاق الحروف فى النوع والضبط والعدد.

ولجناس القلب أو الجناس المقلوب قسمان هما :

١- **جناس قلب الكل** . وضابطه أن تختلف حروفهما فى الترتيب.

بحيث يقع الحرف أولاً فى طرف وآخر فى الطرف الآخر وهكذا. وعلى ذلك جاء قول الشاعر:

حسامك منه للأحباب فتح ورمحك منه للأعداء حتف

الجناس بين فتح وحتف. فأنت ترى أن الفاء أول فى فتح وآخر فى حتف والحاء أول فى حتف وآخر فى فتح. أما التاء فقد ظل محتفظاً بترتيبه فى الطرفين.

وقد تلاعب الشعراء بهذا النوع من الجناس، واتخذوه منهجاً للتظرف والاستملاح وقصدوا إلى ذلك قصداً.

من ذلك ما حكاه الأستاذ على الجندى فى فن الجناس مما روى عن الصاحب ابن عباد حين زاره الشيخ أبو العباس بن الحارث فى يوم شديد الحر وكان الصاحب يتبرد بمروحة من (الخيش).

قال الصاحب للشيخ أبى العباس : (ما يقول الشيخ فى قلبه [١]).

ومن أظرف ما ورد فيه قول الآخر :

ساق يرينى قلبه قسوة وكل ساق قلبه قاس [٢]

---

(١) فى العبارة تورية فى قوله: فى قلبه (إذ معناه القريب قلبه الذى فى صدره. ومعناه البعيد قلب حروف: شيخ. لأنها عند القلب تصبح: (خيش) فيكون السؤال عن رأى الشيخ فى مروحة الخيش. انظر ص١٠٢ من فن الجناس.

(٢) فى التعبير تورية كذلك فى لفظ (قلبه) المراد منها قلب حروف ساقى. فتصبح الكلمة (قاس).

وإذا وقع أحد طرفى هذا الجناس فى أول البيت والثانى فى آخره سموه: المقلوب المجنح. ومن شواهده قول الشاعر:

لاح أنوار الهدى من كفه فى كل حال

وقول الآخر:

رضت فؤادى غادة ما كنت أحسبها تضر

ردت رسولى خائباً فمدامعى أبداً تدر

وأصل هذه التسمية للخطيب. ولم يرتح لها ابن السبكى إذ يمكن أن تطلق هذه التسمية على كل جناس كان هذا شأنه ولا وجه لاختصاص جناس القلب به وهذا رأى صائب يحمد لابن السبكى وإن لم يخل من دفع أو رده هو كرد على تساؤله (١).

وقال ابن نباته فى مدح الأمير شجاع الدين بهرام:

قيل كل القلوب من رهب الحرب تضطرب

قلت هذا تخرص قلب بهرام ما رهب

جانس بين بهرام – ما رهب جناس قلب. وفى العبارة تورية كما تقدم لك بيانها.

ومن أمثلة جناس قلب الكل قول الشاعر:

وتحت البراقع مقلوبها تدب على ورد خد ندى ..

تسالم من لمست خده وتسلب قلب الشجى الأبعد

ومقلوب البراقع العقارب. يعنى الشعر النابت فوق الخدود. والنص تشيع فيه صور مشرقة من التشبيه الضمنى.

٢- قلب البعض: وضابطه أن يكون التقديم والتأخير فى بعض الحروف دون البعض الأخر ومنه قوله عليه السلام:

---

(١) انظر عروس الأفراح حـ٤ ص٤٢٩.

(اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا) بعض الحروف وهى العين والراء هى التى قدمت فى طرف وأخرت فى الآخر. وبقية حروف الطرفين ظل محتفظاً بالترتيب فيهما.

ومنه قولهم: رحم الله امرأ أمسك ما بين فكيه. وأطلق ما بين كفيه) التقديم والتأخير اعترى الفاء والكاف وحدهما.

ومنه فى الشعر قول عبد الله بن رواحة يمدح الرسول عليه السلام:

تحمله الناقة الإدماء معتجراً بالبرد كالبدر جلى نوره الظلما

والجناس بين البرد والبدر. فالباء فى الطرفين أول. والتغيير إنما وقع بين ترتيب الدال والراء.

ومنه قول المتنبى:

منعمة ممنعة رداح يكلف لفظها الطير الوقوعا

والجناس بين منعمة وممنعة. وقد نص البديعيون على نوع ثالث لجناس القلب سموه:

المقلوب المستوى: وضابطه أن يكون ترتيب الحروف فى طرف على عكس ما هو فى الطرف الآخر. بحيث يمكن قراءة الكلمتين من الشمال إلى اليمين كما تقرأ من اليمين إلى الشمال. مثل قولهم:

كبر رجاء أجر ربك. فإنك لو أردت قراءة هذه الجملة من الشمال إلى اليمين لأمكن ذلك حيث تصبح (ربك) بعد القلب فى ترتيب حروفها (كبر) وتصبح (أجر) بعد القلب (رجاء) وهكذا بقية الجملة.

وذكروا له أمثلة: أخرى (سور حماه بربها محروس) وقولهم (سر فلا كبا بك الفرس).

ومن الشعر قول القاضى الأرجانى:

مودته تدوم لكل هول وهل كل مودته تدوم

فإنك تستطيع أن تقرأ هذا البيت مبتدأ بآخر حرف فيه بحيث يصير أول كلمة مودته المصدر بها البيت وهذا حتى تحصل على البيت مرة أخرى بلفظه ومعناه دونما أدنى تغيير.

ومثله قول الآخر :

نال ســـــر العـــــلا بما قـــد حـــواه

أوحـــــد قـــــام بالعـــــلا رســـــلان

وقد عارض شراح التلخيص فى عد هذا النوع من تجنيس القلب. وبنوا رفضهم له على اعتبارين:

١- أن تجنيس القلب يجب أن يذكر فيه المجانس له على هيئة من القلب.

٢- إنه لا يشترط فيه القلب على هذه الصورة: يعنى بحيث يمكن قراءته من الوجهين دونما اختلاف. والحق مع شراح التلخيص فى هذه المسألة لأن الجناس لا بد فيه من ذكر طرفيه على نحو ما تقدم(١).

وقد عدوا هذه الأمثلة - وغيرها - شواهد لفن بديعى سموه القلب وهو خلاف القلب المعروف فى الإخراج على خلاف الظاهر الممثل له بقول الشاعر:

قـــفى قـــبل التـــفـــرق يا ضـــبـــاعـــا

ولايـك مـــــــوقـــف منـك الـوداعـــــــا

وسواء كان هذا النوع قلباً أو من جناس القلب فهو قليل وقل منه ما سلم من التكلف. فينبغى الأخذ به برفق وإلا كان عرضة لذلك.

٥- الجناس المضارع :

جناس المضارعة منظور فيه إلى اختلاف نوع الحروف فى الطرفين مع بقاء بقية مقومات الجناس الأخرى التى هى: الاتفاق فى عدد الحروف وضبطها وترتيبها. فجناس المضارعة إذن هو:

---

(١) انظر شروح التلخيص حـ٤ ص٤٥٩ وما بعده.

أن تجمع بين طرفى جناس لا اختلاف بينهما إلا فى حرف واحد متحد فى المخرج أو متقارب مع نظيره فى الطرف الآخر (١).

ومن أمثلته قول الشريف الراضى:

لا يذكـــر الرمل إلا حن مـــغـــتـــرب

لـــه لـــدى الـــرمـــل أوطـــان وأوطـــار

جـانس بين أوطان – أوطار. والراء والنون من مـخـرج واحـد عند بعض اللغويين مع اختلاف يسير فى الصفة (٢).

ومثله قول الحريرى: (بينى وبين كنى ليل دامس وطريق طامس).

وفى هذين المثالين وقع الاختلاف فى الأول. ومن أمثلة وقوعه فى الوسط قوله تعالى: ﴿ **وهم ينهون عنه وينئون عنه** ﴾ الاختلاف بين الهاء والهمزة وهما من مخرج متحد وهو الحلق.

ومثال وقوعه فى الآخر: (الخيل معقود بنواصيها الخير) الجناس بين الخيل والخير واللام والراء متحدا المخرج مع اختلاف يسير فى الصفة كذلك. وكقولك:

(قرأ فقرع الأسماع. جانست بين قرأ وقرع والهمزة والعين حلقيتان).

وقال أحد الشعراء:

وأطعن للقـــــــرن يوم الوغى

وأطـــعـــم فـــى الـــزمـــن المـــاحـــل

جانس بين أطعن وأطعم وهما صيغتا تفضيل على أفعل. والاختلاف وقع بين النون والميم وهما متقاربان فى المخرج.

---

(١) يشترط فى هذا النوع ألا يكون الاختلاف بأكثر من حرف واحد، وهذا الشرط لازم لا تسامح فيه.

(٢) انظر سر الفصاحة (ص٢٠) شرح عبد المتعال الصعيدى.

هذا . واتحاد المخرج أو تقاربه ضرورى فى تسمية الجناس مضارعا . فإن تباعد المخرجان سموا الجناس لاحقاً . وقد مثلوا له بقوله تعالى :

﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾ لبعد مخرجى الهاء واللام . وقد وقع الاختلاف هنا فى الأول .

ومثلوا للوقوع فى الوسط بقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ . وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ الاختلاف بين الدال والهاء وهما وسط الطرفين ومخرجاهما متباعدان .

ومثلوا لوقوع الاختلاف فى الآخر بقول البحترى :

هل لما فات من تلاق تلاف

أم لشاك من الصبابة شافى

الجناس بين تلاق وتلاف، وبين شاك وشاف . اختلف الأولان فى القاف والفاء، والآخران فى الكاف والفاء ومخارج هذه الحروف متباعدة .

والتفرقة بين المضارع واللاحق دقيقة لا تتأتى إلا لمن له دراية بمخارج الحروف وصفاتها .

وأجمل لك ما سبق عرضه من الجناس حتى الآن :

١- إذا اتفق الطرفان فى عدد الحروف وضبطها وترتيبها ونوعها سمى الجناس التام وهو أربعة أنواع مماثل ومستوفى ومركب وملفق .

٢- إذا اختلف ضبط الطرفين بحركة مقابل أخرى أو سكون مقابل حركة أو تشديد مقابل تخفيف سمى الجناس المحرف .

٣- إذا اختلف ترتيب الحروف بالتقديم والتأخير سمى الجناس المقلوب أو جناس القلب .

٤- إذا اختلف الطرفان من حيث الزيادة والنقص سمى الجناس الناقص سواء كانت الزيادة بحرف أو أكثر .

٥ – وإذا اختلف الطرفان من حيث نوع الحروف فإن تقاربت فى المخرج أو اتحدت سمى الجناس المضارع. وأن تباعدت سمى الجناس اللاحق.

أنواع أخرى للجناس :

ما تقدم من ألوان الجناس مرجعه إلى استيفاء كل مقوماته الأربعة المذكورة أو وجود بعضها وتخلف بعضها الآخر.

فقد علمنا أنه عند وجودها كلها تكون النتيجة تألق الجناس التام بأنواعه الأربعة وعند تخلف أحد تلك المقومات يختفى الجناس التام ويظهر جناس آخر مكانه محرف، أو ناقص، أو قلب، أو مضارع.

وإلى هنا كان ينبغى الوقوف بالجناس عند هذا الحد. ولكن البديعيين تحدثوا عن أنواع أخرى منه واحد منها له صلة بمقومات الجناس المتقدمة والأخرى مبتورة الصلة بتلك المقومات. وإليك الحديث عن اثنين منها فى إيجاز :

٦ – **جناس التصحيف** : وضابطه : أن يتماثل طرفاه خطاً ويختلفا نطقاً ونقطاً ومثلوا له من القرآن الكريم بقوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام :

﴿ **وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ** ﴾.

الجناس بين يسقين ويشفين. والطرفان فيه متماثلان فى الخط فلو أزلت النقط الذى على حروفها حدث بينهما تماثل تام. والاختلاف فى النقط تبعه اختلاف فى النطق كما ترى.

ومن ذلك – أيضاً – ما روى أن النبى عليه السلام قال لعلى بن أبى طالب :

« قصر ثوبك فإنه أنقى وأتقى وأبقى ».

قالوا : ومن شواهده قول البحترى :

ولم يكن المغتر بالله إذ سرى ليعجز والمعتز بالله طالبه

جانس بين المغتر والمعتز. وقال أبو فراس الحمدانى :

من بحر جود أغترف وبفضل علمك اعترف

جانس بين : أغترف واعترف . هذا بعض ما قالوه [1] فى هذا اللون والحق أن جناس التصحيف ما هو إلا نوع من جناس المضارعة. وقد سبق لك أن جناس المضارعة منظور فيه إلى اختلاف نوع الحروف لكنهم خصوه بما إذا كان الاختلاف بين الطرفين بحرف واحد متحد مع مقابله فى المخرج أو متقارب فإن تباعد مخرج المتقابلين سموه لاحقاً.

وجناس التصحيف يكون الاختلاف فيه حسبما ساقوه من أمثلة بأكثر من حرف وذلك واضح فى يسقين ويشفين إذ الاختلاف فيهما بين السين والشين والقاف والفاء.

وكذلك فإن المغتر والمعتز وقع بينهما الاختلاف فى كل من الغين والعين والراء والزاى. وعلى هذا فإن الأحرى أن يندرج هذا النوع تحت جناس المضارعة على أن يكون ضرباً ثالثاً له بعد الجناس اللاحق الذى نصوا عليه هناك.

على أن بعض الأمثلة التى ذكروها لجناس التصحيف هى بالقطع من جناس المضارعة. وذلك واضح فى:

أنقى وأتقى وأبقى. لأن الاختلاف بين أطراف الجناس الثلاثة حاصل فى حرف واحد هو النون مع كل من التاء والباء. فهو جناس مضارعة لاحق حسب تعريفهم المتقدم له.

أما قول أبى فراس : اغترف واعترف. فهو جناس مضارعة صرف لأن الاختلاف وقع بين حرفين فقط وهما الغين والعين. وهذان الحرفان متحدان فى المخرج فهما حلقيان وهذا هو ما اشترطوه فى جناس المضارعة الصرف.

وكذلك ما ذكروه من قولهم: (المجالس أحلاها أخلاها) جناس مضارعة صرف لوقوع الاختلاف فى حرف واحد، الحاء فى مقابلة الخاء. وهما حلقيان

---

(١) انظر فن الجناس لعلى الجندى ص١٤٠ وما بعدها. وانظر معه الطراز للعلوى حـ٢ ص٣٦٦، وحسن التوصل ص٤٥ .

فكيف تكون هذه الأمثلة جناس تصحيف مع انطباق ضابط جناس المضارعة بنوعيه عليها؟!

وجناس التصحيف هو الذى له صلة بمقومات الجناس كما أشرت إلى ذلك آنفاً وإليك الحديث – فى إيجاز – عن النوع الأخير الخارج عن مقومات الجناس المتقدمة.

٧ – الجناس اللفظى (١):

علمت أن المعول عليه فى الجناس اتفاق الكلمتين فى اللفظ مع اختلافهما فى المعنى وعلى هذا الأساس دار البحث فى كل ما تقدم.

وبقيت بعض صور تشبيه الجناس وليست منه. ومرجع ذلك الشبه إلى الاتفاق فى اللفظ والاتفاق اللفظى ليس بكاف فى قيام تجانس بين الكلمتين. بل لابد من اختلاف المعنى ولكن هذه الصور التى نحن بصدد الحديث عنها وإن أشبهت الجناس لفظاً فقد فارقته معنى لعدم التفاوت فى معانيها مثال ذلك قوله تعالى:

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ ﴾ فأنت تلحظ اتفاقاً بين أقم – القيم وهذا الاتفاق جعل هذه الصورة كأنها جناس ولكن لما كان المعنى واحداً للكلمتين زال معنى الجناس عنهما.

وقال البهاء زهير:

بعزمة مأمور مطيع وآمر مطاع فلا يلفى لحزمهم مثل

فقد جانس لفظاً بين مأمور وآمر، ومطيع ومطاع. وهذا اللون يسمى عند البديعيين جناس الاشتقاق وهو أن يجمع الكلمتين أصل لغوى واحد مع اتفاق المعنى.

---

(١) أثرت هذا العنوان على جناس الاشتقاق. لان الشبه فيه لا يتعدى اللفظ بحال.

ومنه قول الإمام على رضى الله عنه : (الغالب بالظلم مغلوب فسالم تسلم).

الأصل اللغوى الجامع لألفاظ الجناس هنا هو (الغلب) فى الأول و (السلم) فى الثانى.

ومن الجناس اللفظى ما كان التشابه فيه ظاهرياً فحسب بمعنى أن طرفى الجناس لم يجمعها أصل لغوى واحد. بل لكل منهما أصل. ويسميه البديعيون: شبه جناس الاشتقاق. وعليه جاء قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ﴾.

قال أصله اللغوى القول بمعنى الكلام. والقالين. أصله اللغوى: بمعنى القلى بمعنى الكره والبغض.

وهذا النوع أدخل فى باب الجناس الاصطلاحى من جناس الاشتقاق للتقارب فى اللفظ مع الاختلاف فى المعنى وهما مبنى الجناس كما تعلم.

ومن هذا الضرب ما يروى عن مجنون ليلى أنه رأى ظبياً فى ديار ليلاه، فأنشأ يقول:

أقول لظبى مر بى وهو هائم أأنت أخو ليلى فقال يقال
فقلت فى ظل الأراكة والغضا يقال ويستظال فقال يقال
فقلت وهل يعفى الغريب بأرضكم إذا ما جنى ذنباً فقال يقال

جانس بين فقال يقال فى الأبيات الثلاثة والجناس الذى فى البيت الأول جناس لفظى أو جناس اشتقاق لأن الطرفين فيه يجمعهما أصل لغوى واحد هو (القول).

أما فى البيت الثانى والثالث فالجناس ليس اشتقاقياً لاختلاف أصل الطرفين.

لأن تقدير المعنى فى البيت الثانى أن يقال من القيلولة وليس من القول الذى هو أصل الطرف الأول.

وتقدير المعنى فى البيت الثالث أن يقال من الإقالة بمعنى الإعفاء. يعنى أن الشاعر سأل الظبى هل يمكن أن يقيل فى ظل أشجارهم. وهل يمكن أن يعفى عندهم أحد ارتكب فى أرضهم ذنباً وجريمة.؟

اتحدت صور الجناس لفظاً فى المواضع الثلاثة مع ما بينها من اختلاف. وتوالى الجناس مدعاة إلى شد الانتباه وأثر الذهن. ويزيد فى حسنه ألا يكون متكلفاً مستكرهاً وإلا كبا صاحبه كبوة لا يقال منها.

وفى ختام جولتك مع الجناس أضع بين ناظريك هذين الجناسين ليكون ختامه مسكاً. قال أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه:

(لو كنت تاجراً ما اخترت غير العطر. إن فاتنى ربحه لم يفتنى ريحه).

وقال رب العزة:

﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾.

* * *

السجع

السجع والجناس من أبرز فنون البديع اللفظى وأكثرها تألقاً وأقواها أثراً. وأسمعها صوتاً. وأشيعها ذكراً. وحسبك دليلاً على هذا أن العامة سريعاً ما يتأثرون بهما، ويعجبون منهما، فمتى سمع أحدهم كلاماً مجنساً أو مسجوعاً اشتد انتباهه إليه، وزاد أسره. وعدوه ضرباً من الفن الرفيع حتى وأن كان غث المعنى ركيك البناء، سوقى اللفظ، عديم الإعراب.

ويبلغ عندهم غاية الحسن إذا كان الكلام مجنساً مسجوعاً معاً. بما يوحى به الجناس غالباً من تألق الألفاظ، وبما يشيعه السجع غالباً من اتساق الأنغام. وحسبك بهذين إبداعاً وإمتاعاً.

ولهذا يتخذ الفنان الشعبى من الجناس والسجع مقومات لفنه، ومرتقى

لبلوغ قوة التأثير على السامع، سواء كان ذلك من خلال أغنية تلحين، أو موال ينشد، أو توشيح يرتل أو منولوج يقدم.

ومما أضفى على هذين اللونين ذيوعاً وشهرة أن الإحساس بهما لا يتوقف على سبق العلم بمعرفتهما. بل أن مجرد السماع كاف فى إدراج أثرهما من خلال النص المؤدى.

هذا . ولا أظنك فى حاجة إلى حديث عن الجناس، فقد بان لك أمره وتميزت قسماته. فتعال معى إلى سياحة قصيرة فى واحة السجع نفتق أكمامه، ونستروح شذاه.

قال ابن زيدون الشاعر الأندلسى الذائع الصيت فى رسالته المسماه (الرسالة الهزلية) التى يهزأ فيها بمنافسه ابن عبدوس [1]:

(أ) (.. إنك انفردت بالجمال واستأثرت بالكمال، واستعليت فى مراتب الجلال، واستوليت على محاسن الخلال).

(ب) (حتى خيلت أن يوسف عليه السلام حاسنك فغضضت منه وأن امرأة العزيز رأتك فسلت عنه).

(جـ) وكسرى حمل غاشيتك [2]. وقيصر رعى ماشيتك والاسكندر قتل داراً [3] فى طاعتك، وأرد شير جاهد ملوك الطوائف لخروجهم عن جماعتك..)[4].

هذه نبذة من الرسالة المذكورة التى أودعها واضعها كل ألوان التهكم اللاذعة ووجها إلى منافسه المذكور. وقد حفلت هذه الرسالة بخصائص النثر

---

(١) راجع كتاب فى الأدب الأندلسى للدكتور جودت الركابى (١٨٩) ط. دار المعارف.

(٢) الغاشية: حديدة فوق مؤخر الرحل. والعبارة: كناية تهكمية عن رفعة قدره. وكذلك ما بعدها.

(٣) دارا: هو ملك الفرس الذى انتصر عليه الإسكندر.

(٤) المصدر السابق (ص٢٥٣).

الفنى الرفيع تتعال ننظر إلى هذا الجزء المختار منها لنضع بصرنا معاً على ما أردناه من صور لها بما نحن فيه بصدده نسب وشيج.

نظرة عجلى فى هذا النص تريك أنه موزع على جداول كل واحد منها له سمة خاصة به. فالجدول (أ) تراه منتهياً بهذه الكلمات:

المجال – الكمال – الجلال – الخلال. وهذه الكلمات الأربع تراها منتهية بحرف واحد هو اللام المسبوقة بألف ولهذا تميز هذا الجدول عما سبقه وعما لحق به.

والجدول (ب) تراه منتهياً بهاتين الكلمتين: منه – عنه. وهما كلمتان انتهت كل منهما بالهاء الذى هو ضمير الغائب. وهو مبنى على الضم فيهما. وبهذا خالف هذا الجدول ما قبله وما بعده.

لأن ما بعده (جـ)، تراه قد انتهت فقره بالكلمات الآتية:

غاشيتك – ماشيتك – طاعتك – جماعتك. وهى كلمات انتهت كل منها بكاف الخطاب المراد به المفرد. ولذا أصبح هذا الجدول ذا سمة خاصة به مثل سابقيه.

وهذا النهج الذى سلكه المؤلف فى رسالته، ليس بلازم فكان له أن يخالفه وأن ينهى كل جملة بحيث تغاير ما سبقها وما لحقها فى حرفها الأخير. دون أن يلتزم نوعاً من التقييد الذى تراه فى أسلوبه.

وعندما يسلك الأديب هذا المسلك فى كلامه – أعنى اتحاد جملتين أو أكثر فى كونهما تنتهيان بحرف واحد كالذى تقدم لك شرحه. فإن البديعيين خاصة، وعلماء البلاغة عامة، يسمون هذا بـ (السجع) وهو يتحقق عندهم بتوافق جملتين على أقل مقدار. وقد يتجاوز ذلك أكثر من جملتين ولا حد له فى الأكثر. وقد عرف البلاغيون السجع بإنه:

(تواطؤ الفاصلتين فى النثر على حرف واحد [1]).

---

(١) راجع شروح التلخيص حـ٤ ص٤٤٥ وما بعدها.

والمراد بالتواطؤ هو الاتفاق . يعنى تكون كل منهما موافقة للأخرى فى ذلك الحرف مثل اللام فى الجمال والكمال فى النص المذكور عن ابن زيدون. وهنا أمور أربعة يحسن بك الإحاطة بها لتكون معيناً لك على الإلمام بمسائل هذا الفن – السجع – وهى :

القرينة – الفقرة – الفاصلة – السجع.

فالقرينة جزء من الكلام يجعل مزاوجاً لآخر، مثل قول أبى الفتح البستى : (ليكن إقدامك توكلاً، وإحجامك تأملاً) فكل من الجزئين زاوج الآخر. ولهذا ترى إقدامك مساوياً لإحجامك. وتوكلاً مساوياً لتأملاً.

أما الفقرة ففيها رأيان. أحدهما أنهما مثل القرينة فهما سواء فى قصد المزاوجة فالقرينة فقرة، والفقرة قرينة. وعلى هذا فإن قول أبى الفتح المتقدم يصح لك تسميته فقرة، كما صح تسميته قرينة.

والرأى الثانى أن الفقرة أعم من القرينة. لأن القرينة مقصود فيها المزاوجة أما الفقرة فلا يشترط فيها ذلك فتحقق فى كل كلامين بينهما مزاوجة أولاً. كما تتحقق فى الكلام غير المزاوج. وعلى هذا فإن الفقرة لا يلزم معها تسجيع.

أما الفاصلة فهى الكلمة الأخيرة من القرينة أو الفقرة. مثل كلمة الجلال – الكمال فى النص السابق.

والسجع له عندهم إطلاقان . أن يكون نفس الفاصلة الموافقة لأخرى. أو يكون هو التواطؤ الحاصل بين الفاصلتين فى الحرف الأخير (١).

وإذا تأملت فلا تجد فرقاً فى الواقع بين الإطلاقين. وذلك لأن السجع لا يحصل من فقرة أو قرينة واحدة. بل لابد من قرينتين ليحصل بينهما اتفاق كما مر. وهذا أدنى حد للسجع. إذا تقرر هذا فإنك إن أطلقت كلمة السجع على الفاصلة الواحدة فإن هذا الإطلاق ملحوظ فيه توافق هذه الفاصلة للأخرى فى

---

(١) راجع – إن شئت – حاشية الدسوقى من شروح التلخيص حـ٤ ص٤٤٥ .

لحرف الأخير، لأنك لو أزلت التركيب الحاصل منهما عن الأخرى لم يحدث سجع.

وهذا يفضى بنا إلى القول بأن السجع هو تواطؤ الفاصلتين معاً على حرف واحد. فلا فرق بين الرأيين إلا فى اللفظ. وهذا ما يؤيده تعريفهم للسجع بالمعنى الأعم.

ولشراح التلخيص كلام حول عبارة السكاكى: (هو فى النثر - يعنى السجع - كالقافية فى الشعر) وفحوى كلامهم أن التشبيه لا يصح إلا بحمل كلام السكاكى على أنه أراد بالسجع الفاصلة الثانية التى واطأت الأولى، ولا يمكن حمل كلامه على أن المراد بالسجع تواطؤ الفاصلتين لأنه لو كان هذا مراده لما صح التشبيه، لأن القافية إما كلمة كما يرى الأخفش، وأما الحرف الأخير فى البيت إلى أول متحرك بعد ساكن بينهما. وعلى هذا فإن الثانية قد تتحقق بجزء كلمة، وقد تتحقق بكلمة أو كلمة وجزء أخرى [1] الخ.

والتواطؤ ملحوظ فيه الفاصلتان فكيف يصح تشبيه السجع بالقافية إذن؟ ولهذا رجحوا أن يكون مراده الفاصلة الثانية لا تواطؤ الفاصلتين.

وعبارة السكاكى تحتمل معنى آخر لم يشر إليه أحد. فقد يكون مراده أن السجع فى النثر كالقافية فى الشعر من حيث أن كلاً منهما يوضح نهاية الفقرة أو البيت توضيحاً كاملاً. فهما بمثابة علامة صوتية مؤذنة بنهاية قرينة النثر، أو بيت الشعر. وإذا صح هذا فلا غموض فى كلام السكاكى كما يرى شراح التلخيص.

أقسام السجع :

قسم البديعيون السجع على أساس الفاصلتين من الاتفاق والاختلاف فى بعض الأمور. وعلى هذا فإن أقسام السجع عندهم ثلاثة وإليك الحديث عنها:

---

(١) العمدة لابن رشيق حـ١ ص١٥١

١- **السجع المطرف** . وضابطه أن تختلف فاصلتاه فى الوزن . ومن أمثلته قول أحد الفصحاء : (جنابه محط الرحال . ومخيم الآمال) .

فاصلتا هذا السجع هما : الرحال – الآمال . وهما متفقتان فى حرف الروى الذى هو اللام فيهما . ولكنهما مختلفتان فى الوزن . لأن رحال على وزن فعال . الذى فاؤه مكسورة . وهو بعد هذا مفتوح العين ساكن الألف أما آمال فوزنه آفعال . فهو متحرك الأول بالفتح وعينه ساكنة وهكذا . فاتفقت فاصلتاه فى الروى واختلفت فى الوزن .

ومثاله من القرآن الكريم قوله تعالى :

﴿ **مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا** ﴾ الفاصلتان وقاراً وأطوارا . وهما مختلفتان فى الوزن لأن وقاراً على وزن فعال . وأطواراً على وزن أفعال . فالاتفاق حاصل بينهما فى حرف الروى فحسب .

ومن أمثلته فى الشعر قول شوقى :

ريم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم

الفاصلتان : العلم والحرم . اتفقتا فى حرف الروى واختلفتا وزناً فالأولى على وزن فعل . بفتح الفاء والعين . والثانية على وزن فعل بضم الفاء والعين .

وقول أبى تمام :

تجلى به رشدى ، وأثرت به يدى وفاض به ثمدى ، وأورى به زندى(١)

مواطن السجع فى البيت أربعة : رشدى ويدى ، وثمدى وزندى . اتفقت فواصله فى حرف الروى . واختلفت فى الوزن .

وقد اختلف العلماء فى تسمية هذا النوع (مطرف) لكن الذى تستريح إليه النفس من بين تلك الآراء أنه سمى مطرفاً لأن الاتفاق بين الفاصلتين إنما حدث فى طرفيهما . وهو حرف الروى .

---

(١) فاض ثمدى : كثر قليلى . وأصل الثمد الماء القليل المتقطع المدد . وأورى زندى : أولع .

أما الفاصلة فى نفسها فإنها تختلف مع نظيرتها فى أن كلاً منهما له وزن خاص به.

٢- **الترصيع** [١] وضابطه أن تتفق الفاصلتان فى الوزن والتقفية بأن يكون وزنهما واحداً، والحرف الأخير فيهما واحداً، بشرط أن يكون ما فى إحدى القرينتين من الألفاظ أو أكثره مثل مافى الأخرى فى الوزن والتقفية كذلك ومن أمثلة هذا قول الحريرى:

(فهو يطبع الأسجاع بجواهر لفظه. ويقرع الأسماع بزواجر وعظه).

فقد اتفقت الفاصلتان فى حرف الروى (التقفية) واتفقتا كذلك فى الوزن. والفاصلتان هما: لفظه - وعظه. كلتاهما على وزن (فعل) بفتح الفاء وسكون العين وكلتاهما منتهية بهاء ضمير الغائب. وكل الألفاظ التى فى القرينة الأولى مثل ما فى القرينة الثانية وزناً وتقفية: يطبع ويقرع - الأسجاع والأسماع - جواهر وزواجر.

ومنه قول أبى الفضل الهمذانى: (أن بعد الكدر صفواً، وبعد المطر صحواً)

أما النوع الثانى الذى يكون فيه أكثر ما فى إحدى القرينتين من ألفاظ مماثل لما فى الأخرى فإن خير وأجمل شواهده قوله تعالى:

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴾.

﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾.

فإن فى القرينة الأولى أربع كلمات تماثلت مع أربع أخرى فى القرينة الثانية فى الزنة والتقفية. وتلك الكلمات هى:

أما وأما - ومن ومن - والحسنى والحسنى - وسنيسره وسنيسره بل أن التماثل لم يقتصر على الوزن والتقفية. بل أن الكلمات تكررت بأعيانها فى القرينتين لفظاً ومعنى، وهذا لا يكاد يوجد خارج دائرة القرآن المعجز.

---

(١) الأنسب أن يسمى المرصع كما سمى الأول المطرف

وبقى فى القرينتين ثلاث كلمات متقابلة (ست كلمات) ثنتان منها لم تتفقا وزناً ولا تقفية وهما : أعطى، بخل.

أما الأربع الأخرى (ثنتان فى كل قرينة) فثنتان منهما اتفقتا فى التقفية دون الوزن وهما : اتقى، استغنى. وأخريان اتفقتا فى الوزن دون التقفية وهما : صدق، كذب وهذا يريك إلى أى حد بلغ التماثل بين القرينتين.

٣- **المتوازى** . وضابطه ألا يكون ما فى إحدى القرينتين من الألفاظ مماثلاً لما فى الأخرى فى الوزن والتقفية. ومن أمثلته قوله تعالى :

﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ . وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴾.

لأن (سرر) لا تماثل (أكواب) لا فى الوزن ولا فى التقفية.

قال عليه السلام : (اللهم إنى أدرأ بك فى نحورهم وأعوذ بك من شرورهم).

لأن (أدرأ) لا تماثل (أعوذ) و (فى) لا تماثل (من).

وقال الحريرى : (الجانى حكم دهر قاسط. أن انتجع أرض واسط).

ومن أمثلته شعراً قول المتنبى :

فنحن فى جـــزل ، والروم فى وجل

والبر فى شغل والبحر فى خجل

وذلك لأن ما فى القرينة الأولى من الألفاظ غير مماثل لما فى الثانية لا فى الوزن ولا فى التقفية.

وفى تسمية هذين النوعين المرصع والمتوازى توجيهات أوجزها لك فيما يأتى :

قالوا فى المرصع أنه سمى مرصعاً تشبيهاً له بترصيع العقد. وهو وضع كل لؤلؤة فى أحد جانبيه على نسق يماثل نظيرتها فى الجانب الآخر.

ولما كانت الألفاظ فى إحدى القرينتين فى السجع المرصع تتفق مع نظائرها

فى القرينة الثانية وزناً وتقفية. فقد أشبهت بذلك نظام اللآلئ فى العقد المرصع فسمى السجع الذى هذا شأنه مرصعاً (١).

أما المتوازى فإن الاتفاق فى الوزن والتقفية إنما هو حاصل فى فاصلتيه دون ألفاظ القرينتين. فكان كل طرف من طرفيه – فاصلتيه – وازى الآخر. ولذلك سمى متوازياً (٢).

تفاوت السجع فى الحسن :

اشترط البلاغيون والنقاد شرطاً عاماً لحسن السجع كله وهو أن تختلف قرينتاه فى المعنى. ولذلك لم يرض النقاد عن قول ابن عباد يصف مهزومين:

(طاروا واقين بظهورهم صدورهم، وبأصلابهم نحورهم) لأن معنى القرينة الثانية هو معنى القرينة الأولى.

هذا هو الشرط العام . أما تفاوت السجع فى الحسن فهو عندهم على الوجه الآتى:

(أ) أن أحسن الأسجاع ما تساوت قرائنها. ومن أمثلة هذا فى القرآن الكريم ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ . وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ . وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾.

فقد تساوت القرائن كما ترى: سدر وطلح وظل. ومخضود ومنضود وممدود. ولا يقدح فى هذا التساوى كون طلح مفتوح الطاء وهو فاء الكلمة ونظيريه سدر وظل مكسورا الفاء. لأن المراد بالتساوى أن تقابل الحركة الحركة والسكون السكون لا الاتحاد فى عين الحركة. فالمعتبر هنا الوزن الشعرى وليس الوزن الصرفى وبينهما بون شاسع.

ومنه قول الإمام على رضى الله تعالى عنه يصف مقام الرسول عليه السلام:

---

(١) المرشدى على عقود الجمان حـ٢ ص١٥٨ .

(٢) حاشية الدسوقى : شروح التلخيص حـ٤ ص٤٤٨ .

(عترته خير العتر، وأسرته خير الأسر، وشجرته خير الشجر نبتت فى حرم وبسقت فى كرم إمام من اتقى، وبصيرة من اهتدى) [1].

(ب) ويلى هذا النوع فى الحسن ما طالت قرينته الثانية. ومثاله من القرآن الكريم: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ القرينة الأولى أقصر ألفاظاً من الثانية. وهذا واضح.

(جـ) ويليه عندهم ما طالت قرينته الثالثة. ومثلوا له من القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾.

فقد تساوت القرينتان الأولى والثانية وطالت الثالثة إذ جاءت فى ثلاث كلمات.

قالوا: وقد اجتمع طول الثانية مع الثالثة فى قوله تعالى:

﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

أما من غير القرآن فقد ذكروا لطول الثالثة قول أبى الفضل المكيالى يمدح: له الأمر المطاع. والشرف اليفاع، والعرض المصون والمال المضاع [2].

وقبيح عندهم أن تلى القرينة القصيرة قرينة أخرى طويلة وعللوا هذا القبح بأن السامع عندما يسمع قرينة طويلة يتوقع أو يألف أن تكون الثانية مثلها فإذا جاءت أقصر منها كان كمن يريد الانتهاء إلى غاية فيعثر دونها ومثلوا لذلك بقولهم:

(خاطبنى خليلى وشفانى بكلامه الذى هو كالجوهر النفيس، فاقتضيت به أحسن تنفيس) [3].

---

(١) نهج البلاغة حـ١ ص٩٣ . تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم. ط عيسى البابى الحلبى.

(٢) شروح التلخيص حـ٤ ص٤٥٠ .

(٣) نفس المصدر حـ٤ ص٤٥٠ .

وفى هذا التعليل نظر ، لأنهم عندما جعلوا أحسن السجع ما تساوت قرائنه عللوا ذلك بأمرين :

أولهما : لأنه شبيه بالشعر الذى تتساوى فيه الأبيات .

وثانيهما : أن السمع ألف الانتهاء إلى غاية فى السجعة الأولى فإذا زيد عليها فى الثانية ثقل عليه الزائد إذ يكون عند الانتهاء إلى مقدار الأولى كمن توقع الظفر بمقصوده من فهم المراد فلم يجده[٣] . وهذا يتعارض ببديهة النظر مع ما عللوا به قصر الثانية عن الأولى . ويمكن حمل كلامهم على أن بين التعليلين فرقاً من حيث أن فى كل من الناقص والزائد خروجاً عما ألفه السمع وتعوده قياساً على القرينة السابقة طولاً أو قصراً .

وقفة مع تمثيلهم لتفاوت السجع فى الحسن :

وبعد أن عرفت الأسس التى وضعوها لحسن السجع وتفاوته فى ذلك الحسن أدعوك أن تنظر فى الأمثلة التى ساقوها تطبيقاً لتلك الأسس . تجد أن تمثيلهم له كاد يقتصر على آيات من القرآن الحكيم سواء فى ما تساوت قرائنه ، أو طالت الثانية عن الأولى ، أو الثالثة عما سبقتها وهكذا .

وهذا يقتضى أن ما ساقوه دليلاً على تساوى القرائن أحسن سجعاً مما يليه ، فيكون أحسن بلاغة وهكذا .

وكلام الله لا تفاوت فيه من حيث القوة والإصابة والجمال والحسن . فليس فيه أحسن وحسن وإنما هو كله (حسن) مستوى الدرجة فى الكمال الذى لا مطلب وراءه . فكل صورة من صور التعبير القرآنى مقدرة بقدر ، وموضوعة بإحكام . ولها حال ومقتضى . فإذا غابت عنا حكمة بعض الصور فلنتهم ذكاءنا بالقصور لا أن نصف كلام الحكيم بالتفاضل فيما بينه نزولاً على مقاييس وضعها

---

(١) نفس المصدر ص٤٤٩ .

فن أو مصطلح. ومذهب المحققين من أولى العلم استواء كلام الله فى درجة واحدة من الكمال وبذلك صار القرآن معجزاً.

كما أن فى تعليلهم أحسن السجع بما تساوت قرائنه، لأن تساوى القرائن يجعل النثر شبيهاً بالشعر. والتمثيل لذلك بآيات من كتاب الله المعجز. أقول: أن فى ذلك افتياتا وتطاولاً على جلال كلام الله وروعته. إذ لو كان الشعر دائماً أفضل أساليب القول وفنونه لأنزل الله – سبحانه – القرآن كله شعراً. ولكننا نجد العزيز الحكيم ينفى وصف الشعر عن كلامه، وينفى قول الشعر عن رسوله الذى أنزل عليه القرآن. لأن وحيه المنزل نمط فريد من البيان هو فى الطبقة العليا من فنون القول. وصدق الله إذ يقول:

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا ﴾.

هذه الآراء يجب أن يعاد النظر فيها وإن حفلت بها كتب الأقدمين والمتأخرين.

ومن مقتضيات السجع عند البديعيين أن تكون فواصله موقوفاً عليها ليتم التزاوج بينها من كل الوجوه، وهذا لئلا تقلل حركات الإعراب من أثر التزاوج الصوتى. لأن الفاصلتين قد تكونان مختلفتين فى حركات الإعراب. وقد ضربوا لذلك مثلاً فقالوا لو وصل المتكلم هذه العبارة:

(ما أبعد ما فات : وما أقرب ما هو آت) فلابد من إظهار حركات الإعراب، ولو ظهرت لفات التزاوج. فالأفضل إذن الوقوف عند آخر كل فاصلة ليقابل السكون السكون.

السجع والشعر :

جل العلماء على أن السجع خاص بالنثر، ولا مجال له فى الشعر. لأن الشعر بما فيه من أوزان خاصة بكل بحر من بحوره، وبما فيه من التزام قافية موحدة فى القصيدة كلها. بهذا كله أصبح الشعر غنياً عن التسجيع الذى أهم شروطه

اتفاق الفاصلتين فيه فى الحرف الأخير دائماً، وفى الوزن فى بعض الأحوال. على الوجه الذى مر بك.

وخالف بعض العلماء فأفتى بجواز ورود السجع فى الشعر. وهذا الرأى أقرب إلى الواقع ولذلك فاننا فى تمثيلنا لأنواع السجع مطرف ومرصع ومتواز لم نقتصر على النماذج النثرية بل جعلنا سوق المثال من الشعر قسيم مثال النثر. وهذا المنهج متبع فى كتب كثير من البلاغيين الرواد فى هذا الفن.

وعلى هذا فإن السجع كما جرى فى النثر يجرى كذلك فى الشعر. له فيه أقسام نذكر لك منهما اثنين وهما اللذان نص عليهما الخطيب فى الإيضاح:

١- التشطير : وضابطه أن تأتى فى شطرى البيت بسجعة مخالفة لأخرى فى الشطر الثانى. ومنه قول أبى تمام:

تدبير معتصم بالله منتقم لله مرتغب فى الله مرتقب

فقد شطر الشاعر فجعل الشطر الأول سجعة ميمية، وجعل الشطر الثانى سجعة بائية.

٢- التصريع : وضابطه أن تكون العروض مقفاة كالضرب [١].

ومن أمثلته قول أبى فراس :

باطراف المثقفة العوالى تفردنا بأوساط المعالى[٢]

العروض : العوالى . والضرب: المعالى. وقد جعلها الشاعر مسجوعتين باللام المكسورة.

وقد التزم كثير من الشعراء تصريع البيت الأول من قصائدهم. قال كعب ابن زهير:

---

(١) الإيضاح حـ٢ ص٣٩٧ وانظر معه شروح التلخيص حـ٤ ص٤٥٤ .

(٢) لعلك تذكر أن العروض هى آخر تفعيلة فى الشطر الأول من البيت، والضرب هو آخر تفعيلة من الشطر الثانى من البيت. دار صادر – بيروت.

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول　　متيـــم أثرها لـم يفد مكبـــول

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا .　　إلا أغن غضيض الطرف مكحول

فتراه التزم فى البيت الأول تقفية العروض والضرب ولم يفعل ذلك فيما تلاه من أبيات القصيدة.

وقال طرفة فى معلقته المشهورة :

لخـولة أطـــلال ببرقة تهمد　　تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد

وقوفا بها صحبى على مطيهم　　يقـــولون لا تهـــلك أسـى وتجلد

صرع البيت الأول . ولم يصرع تاليه. وهكذا.

وبقى بعد التشطير والتصريع اللذين نص عليهما الخطيب نوعان آخران اذكرهما لك من باب كمال الإحاطة. وهما:

٣- الموازنة [1]. وضابطها أن تتفق كلمات صدر البيت أو عجزه فى الوزن دون التقفية. ومنها قول امرئ القيس:

سليم الشظى ، عبل الشوى ، شنج النسا

له حجبات مشرفات على الفالى

وازن بين : الشظى – الشوى – النسا.

٤- المماثلة وهى أن تكون الألفاظ التى فى شطرى البيت متفقة فى الوزن دون التقفية. بأن يكون هذا الاتفاق بينها كلها، أو بين أكثرها. والمماثلة عندهم أجمل من الموازنة لكثرة ما بين كلماتها من اتفاق.

ومن أمثلة المماثلة قول البحترى :

فقف مسعداً فيهن إن كنت عاذراً　　وسر مبعداً عنهن إن كنت عاذلا

---

(١) بعضهم يرى أن الموازنة من السجع النثرى وهو مرجوح لذلك نقصره على الشعر هنا.

وقول ابن هانئ :

فإذا عفا لم يلف غير مملك وإذا سطا لم يلق غير معفر

لأنك أن قابلت كل كلمة فى شطر بما يقابلها فى الشطر الأخير من البيتين تجدها على وزن واحد . ولا تقل أن كلمة (فيهن) على وزن يخالف مقابلها وهى (عنهن) لأن المراد بالوزن الوزن الشعرى وليس الوزن الصرفى . وقد تقدم لك ذلك .

السجع والقرآن الكريم :

للعلماء آراء كثيرة حول ورود السجع فى القرآن الكريم ونفيه عنه . فمنهم من أجاز، ومنهم من منع، ولكل من المجيزين والمانعين حجج وأسباب ولا أريد أن أطيل عليك برد تلك الآراء وأدلتها . وإنما أوجز لك أهم ما جاء فى هذه القضية مع بيان الرأى الأمثل فيها .

١- المانعون يستندون إلى أن السجع منهى عنه شرعاً . وأنه يقصد فى نفسه ثم يحال المعنى عليه . وأنه لو صح أن فى القرآن سجعاً لكان مذموماً لأن بعضه لم يجد على سنن السجع الحسن الذى مر بيانه، لأن منه ما هو متدانى المقاطع متحد الفواصل، ومنه ما هو متحد المقاطع متقارب الفواصل . وأنه لو صح ورود السجع فيه لم يكن - يعنى القرآن معجزاً - لأنه يكون جارياً على أساليب كلام العرب ولو جاز أن يقال هو سجع معجز، لجاز أن يقال هو شعر معجز، وكذلك فإن السجع كان مما يتعاطاه الكهان من العرب . وإذا كان الله قد نفى الشعر عن كتابه . فإن نفى السجع أولى لأن الكهانة تنافى النبوات ولذلك فإنهم يسمون نهايات الآيات القرآنية فواصل ولا يسمونها اسجاعاً .

٢- والمجيزون يستندون إلى أسلوب القرآن نفسه فقد جاء فيه السجع فى مواضع كثيرة بل أن بعض السور قد جاءت كلها مسجوعة على حرف واحد - تقريباً - كسورة النجم وسورة القمر، وسورة الرحمن، كما جاءت بعض السور مسجوعة لا على حرف واحد كسورة الواقعة وطه وهكذا . .

أما شبه المانعين فردوها بأدلة مقنعة . . ولا ضرر بوجود السجع فى القرآن فلا

ينفى الإعجاز عن القرآن لورود السجع فيه، لأن فى القرآن فنوناً أخرى من أساليب العرب فى كلامهم كالاستعارة والتطبيق والكناية والجناس وسائر فنون البلاغة ولم يقل أحد بنفى شئ منها.

وكل ما جاء فى القرآن من السجع فهو من الطبقة العليا فى الفصاحة. والبلاغة. والقوة والصفاء سواء المتحد الفواصل منه والمتقارب. والاتفاق فى التسمية بين السجع المتكلف والسجع المعجز لا يضر، بل هو يظهر فضل ما له الفضل. ولو كان القرآن نازلاً على غير أساليب العرب لما صح أن يتحدوا به ولما كان للإعجاز حينئذ معنى [1].

والحق الذى لا مرية فيه أن تسمية بعض صور التعبير فى القرآن الكريم سجعاً لجريها على ما وضعوه من ضوابط أمر مسلم ولا جدال فيه. أما الفرار من ذلك إلى التسمية بالفواصل فلا يغير من الواقع شيئاً، إلا أن يكون هذا اصطلاحاً آخر سمى به السجع الوارد فى القرآن فواصل – فلا مشاحة فى التسمية.

الفروق بين الفواصل القرآنية. والأسجاع :

من الفروق التى ذكروها بين الفواصل القرآنية. والأسجاع الواردة فى النثر العادى أو الشعر ما يأتى :

١– أن العيوب التى تلحق القافية من اختلاف الحركة والاشباع والتوجيه ليست بعيوب فى الفاصلة.

٢– أنه فى السجع لابد من التزام الفاصلتين حرفاً واحداً تنتهيان به. أما الفواصل القرآنية فلا التزام فيها. ولذلك فإن الفاصلتين فيه قد تختلفان فى حرف الروى ومن ثم نرى (ترجون) مع (عليم) ونرى (الميعاد) مع (الثواب – ونرى (الطارق) مع (الثاقب) [2] وهكذا.

---

(١) راجع سر الفصاحة لابن سنان ص١٦٤ وما بعدها. والصناعتين للعسكرى ص٢٤٩ وما بعدها.

(٢) راجع الإتقان للسيوطى حـ٢ ص ١٦٤.

وعلى هذا فإن فواصل القرآن نوعان متماثل مثل قوله تعالى:

﴿ وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾.

النوع الثانى المتقارب: ومنه قوله تعالى:

﴿ الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ومنه قوله تعالى: ﴿ قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾.

ومنه قوله تعالى فى شأن موسى وهارون:

﴿ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ * وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾.

ويشيع فى مقاطع الفواصل القرآنية ختمها بحروف المدواللين. وإلحاق النون فى آخر الفاصلة. وذلك من شأنه أن يجعل الفاصلة أطوع وأمكن فى الإيحاء الصوتى الشجى العذب (١).

وفى هذا يقول سيبويه عن العرب: (أما إذا ترنموا فإنهم يلحقون الألف والواو والياء، لأنهم آرادوا مد الصوت(٢)).

ومهما تشابه القرآن مع أساليب كلام العرب فإنه كان – وسيظل – البيان الأعلى علو من أنزله. ففضل كلام الله على كلام الناس كفضل الله على الناس أنفسهم وما أبعد ما بين الخالق الرفيع الدرجات، والمخلوق الدنى المنازل.

* * *

---

(١) انظر البرهان للزركشى حـ١ ص٦٨ وما بعدها. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط. عيسى البابى الحلبى.

(٢) الكتاب حـ٢ ص٢٩٨.